روايتي
Rwiaty.com

علي عيسى

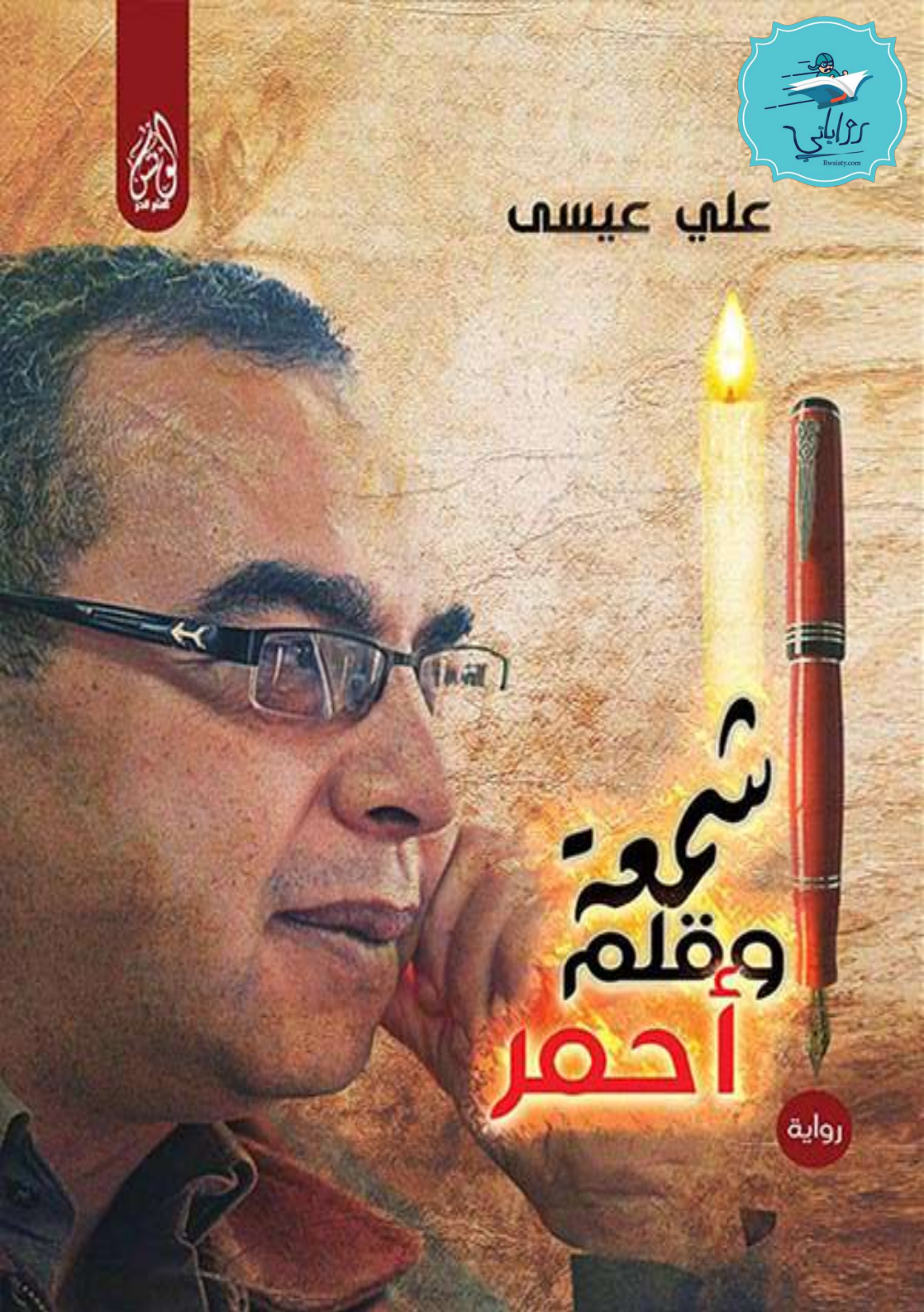

شمعة وقلم أحمر

رواية

للمزيد من تحميل الروايات و الكتب زوروا موقعنا من الرابط التالي :-

www.rwaiaty.com

و تفضلوا بزيارة جروب الفيس بوك الخاص بنا (جروب رواياتي)

من خلال الضغط علي الرابط التالي :-

https://www.facebook.com/groups/Rwaiaty/

كما يمكنكم متابعتنا ومراسلاتنا علي الصفحة الرسمية علي الفيس بوك

من خلال الضغط علي الرابط التالي :-

https://www.facebook.com/Rwaiaty.Rwaiaty/

للمزيد من الكتب والروايات الحصرية أنضموا ل جروب رواياتي
أو زوروا موقعنا Rwaiaty.com

شمعة وقلم أحمر

علي عيسى

رواية

شمعة وقلم أحمر
رواية
علي عيسى

إصدار: نوفمبر ٢٠١٨

رقم الإيداع
2018MO5371

الترقيم الدولي
978-9920-9770-0-5

الغلاف والإخراج الفني:
دار لوتس للنشر الحر

مشروع النشر الحر
رقم الإصدار: (١١٨)

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأية طريقة دون موافقته أو دار النشر

كل ما ورد بهذا الكتاب مسئولية مؤلفه من حيث الآراء والأفكار والمعتقدات، وكونه أصيل له غير منقول، وأية خلافات قانونية بهذا الشأن لا تتحملها دار النشر

منشورات دار لوتس للنشر الحر
شركة لوتس للإنتاج والتوزيع
القاهرة الكبرى:
١٦ شارع محمد موسى متفرع من أول شارع فيصل بجوار محطة مترو فيصل
هاتف: ٠١٠٩١٩٨٥٨٠٩ – ٠١١١٦٣٨٩٣٤٧
الإسكندرية:
٦ شارع بن دينار – محرم بك – امبروزو
هاتف: ٠١٠٦٨٦٣٨٣٧٧
المغرب: الدار البيضاء
٢٧٠ زنقة ١٦ – حي البركة – مولاي رشيد
هاتف: ٠٦٦٤٣٩١٢٦١

مشروع النشر الحر
أول مشروع من نوعه يمنح الكاتب كافة الحقوق، والحرية الكاملة لنشر كتابه بدون احتكار لمجهوده في عملية تجارية.

للتواصل مع الدار والمشروع
هاتف / واتس آب:
+2 01116389347 - +2 01091985809
الموقع الإلكتروني:
www.lotusfreepub.com
البريد الإلكتروني
Lotusfreepub@gmail.com
صفحة فيسبوك
www.facebook.com/lotusfreepub

الفصل الأول

لم يكن الليل قد انتصف بعد حتى عاد سامح درويش من عمله متأخرا بعد عناء شديد في طريق عودته في تلك الليلة الشتوية ذات الرياح العاصفة التي أبت إلا أن تهب الأرض بعضا من قسوتها بموجة عنيفة من الأمطار الغزيرة المصحوبة برعد قاصف وبرق خاطف ألقي في نفس الرجل رعبا لا يعلم له سببا، لكنه وبعد محاولات مستميتة تجاوز كل الطرقات الزلقة إلى ذلك الشارع الهادئ الذي يسكنه بحي الهرم بالجيزة والذي خلا في تلك الساعات من المارة والسيارات على حد سواء، واكتفي حراس العقارات بالتقوقع حول مواقد يشعلون بها قطع من الأخشاب التماسا للدفء، وأغلق عمال المتاجر الأبواب دون هذه الموجة الشرسة من الصقيع والتي أثارت الكآبة في نفس سامح دون أن تكون هي المبرر الوحيد لعبوس وجه الرجل وانعقاد حاجبيه في تلك الليلة، فلم يغب عن عقل ووجدان الرجل لحظة واحدة ما تعانيه زوجته من آلام مبرحة كانت قد سكنت منذ فترة ثم تجددت الليلة الماضية قبل أن يقرر أحد الأطباء لها أن تبقي في فراشها لأيام ربما تمتد إلى أسبوع أو يزيد قليلا، لكن فيما يبدو أن الحياة تخفي لسامح وزوجته أمال وأطفالهما الكثير من المصاعب والمصائب التي لم تكشف عنها الأيام حتى اللحظة، فقد كان ابن سامح الأكبر وهو الفتي

محمود طفل من المتفوقين دراسيا والمشهود لهم بحسن الخلق وكانت الطفلة هدير هي الأخت الصغرى لذلك الطفل من زوجة سامح الأولى رانيا والتي لقيت حتفها غرقا قبل عامين عند أحد الشواطئ المصرية خلال رحلة الأسرة لقضاء العطلة الصيفية تاركة لزوجها طفلين في حاجة إلى رعاية أم خصوصا تلك الفتاة هدير التي كانت قد وصلت إلى نهاية المرحلة الابتدائية بينما يكبرها أخاها بثلاثة أعوام مما دفع الرجل للزواج من زوجته الحالية أمال والتي حرمتها الحياة من الأمومة لأسباب قدرية لم تفلح في معالجتها تدخلات الأطباء رغم طول فترة التداوي لكنها كانت لا تزال في ريعان الصبا وكان الجمال هو الدافع الوحيد لسامح لان يسعى للزواج منها متغاضيا عن الأسباب الجوهرية التي دفعتها للانفصال عن زوجها السابق قبل أن تصبح زوجة لسامح الذي عاد إلى بيته في تلك الليلة خائر القوي مجهد النفس والبدن فلم يستطع حتى أن يطفئ محرك سيارته لدقائق معدودة عند متجر قريب ليشتري طعاما للعشاء مكتفيا بما يتوقع أن يجده في المنزل إذا استطاعت زوجته أن تغادر فراشها لتعده له من طعام، وعندما دخل الرجل إلى شقته وتخفف من ثيابه بعد أن استلقي على كرسي يتوسط الصالة الواسعة التي تفصل بين مدخل شقته وحجرة نومه، حاول بكل هدوء أن يبحث عن طعام فلم يجد إلا بعضا من الفاكهة فتناول قطعة منها ثم آوي إلى فراشه فلم يداعب النوم جفونه إلا في ساعة متأخرة من الليل بعد أن سيطر عليه الأرق بصورة مفاجئة، ولم يكن قد

استغرق في النوم تماما إلا بعد معاناة حتى فوجئ بأنين مكتوم يوقظه رغم أنفه من النوم فلم يكن يستطيع أن يتجاهل ما تعانيه زوجته من الألم الذي اشتد حتى تفصد جبينها عرقا رغم برودة الطقس فلم يستطع الرجل أن يصبر على هذا التوجع فاتصل هاتفيا بسيارة إسعاف لم تلبث أن دوت صافرتها لتثير ضجة في أنحاء المنطقة فأيقظت بعضا من جيران سامح النائمين الذين هرعوا إلى شقته ليتبينوا حقيقة الأمر، لكن سامح لم يكن يخشى شيئا إلا ما سوف يواجه أطفاله الصغار الذين أفزعهم توجع زوجة الأب والتي ما رأى أحدهم منها خيرا إلا نادرا ورغم ذلك بكت الطفلة الصغيرة والتي أفزعها ما رأت عليه زوجة أبيها من الألم وقضي الرجل ليلته بالمستشفى تاركا مصير أبنائه إلى المجهول ولم يعد يعنيه تغيب أحدهما أو كلاهما عن المدرسة في صباح اليوم التالي، ثم مضت عدة ساعات قبل أن تعود الحالة الصحية لزوجته إلى الاستقرار النسبي إلى أن اتجهت نحو الاستقرار التام في عصر اليوم التالي فانقشعت سحابة الحزن التي غشيت وجه الرجل ليواجه ما هو أخطر بعد أن عادت زوجته إلى شقته عندما بدأت خلافات عديدة تنشأ بينه وبين رئيس مجلس إدارة الشركة التي يعمل بها سامح الذي لم يكن يقبل الانقياد لتعليمات ذلك الرجل خصوصا عندما أطلت علية تلك الغمة التي لم يكن يتوقع لها انفراج قريب بمرض زوجته وعودته اضطرارا من خارج مصر بعد أن مرضت أمال، وها هو يتغيب عن عمله بعد عودته من الخارج بعدة أيام ولم يكن قد انتظم بعد في عمله

بشكل كامل لكنه لظرف طارئ يعلمه الجميع يحصل على أجازة جديدة ولكنها قصيرة هذه المرة ليومين فقط وعاد إلى عمله شهرا متصلا قبل أن تعاود الأزمة الصحية الأخيرة لزوجته السيطرة على عقله ليحصل بعد تجدد الألم الذي انتاب الزوجة على أجازة من عمله لأسبوعين كاملين حتى يستطيع أن يرتب حياته من جديد، فقد أصبح لزاما عليه أن يستقطع بعضا من وقته ليتابع حالة زوجته التي تعاني من مشاكل صحية بالكلية اليمنى، ولكن نتائج التحاليل الطبية أكدت خطورة استئصال تلك الكلية في الوقت الراهن لأسباب تتعلق بضغط الدم وعوامل أخرى، ولم يكن سامح من أولئك الذين يستطيعون اللجوء إلى الأهل لرعاية زوجته وأولاده من زوجته السابقة، حيث كان يتميز بالخجل المفرط والانطواء الشديد، وكانت علاقاته الاجتماعية مع أقرب الأهل محدودة للغاية، فقد تعود الرجل بحكم عمله فيما سبق أن ينكفئ على ذاته موليا أسرته الصغيرة كل جهده ومعظم وقته، فلم يكن من السهل عليه أن يقبل بعطف من الأهل يشبه التصدق عليه بوقت أو جهد في مقابل أن يتفرغ لعمله الذي كان يواجه به أيضا مشكلات عديدة، لكنه عندما مضت الأيام وشعر بغربة النفس وضيق الصدر ما وجد لنفسه ملاذا ولقلبه موطنا يأوي إليه إلا أن يرتمي بين أحضان الأم التي بقيت في تلك القرية الريفية البعيدة التي نشأ وتربي فيها سامح وإخوته، حيث كان سامح هو الابن الأكبر للحاج درويش أحد أكبر معلمي المرحلة الابتدائية بالقرية قبل وفاته والذي

تتلمذ على يديه معظم رجالها، وكانت الأم منيرة التي بقيت في بيتها القديم ورفضت مغادرته بعد وفاة زوجها هي الرمز الباقي من زمن الأصالة والتي كانت تجمع الأبناء حولها في مواسم تتكرر مرتين أو ثلاثة في كل عام عندما يعود شهر رمضان ضيفا كريما على الأمة الإسلامية بنفحاته الطيبة وبعده عيد الفطر ثم عيد الأضحى، وكان الإفطار الأول في شهر رمضان هو اليوم المقدس الذي يجمع الأبناء والأحفاد في بيت الجدة، وكانت منيرة والدة سامح تلقي من أبنائها وبناتها كل الرعاية بمن فيهم سامح نفسه قبل أن تباعد ظروف الحياة وتقلباتها بينه وبين الأم التي تقدم بها العمر واكل الشيب زهرة شبابها ووهنت قوتها إلى الحد الذي فقدت معه بصرها قبل سنوات، وبقيت معها حفيدتان تقومان على خدمتها ورعايتها بعد طلاق أمهما الأخت الصغرى لسامح والتي لازمت بيت أبيها معتمدة على ما توفره الأرض التي ورثتها عن أبيها واستأجرها منها أحد فلاحي القرية ليقوم بزراعتها في توفير ما يلزمها من نفقات، بينما تولي عادل الشقيق الأصغر لسامح رعاية الأم من خلال زيارات متتابعة على فترات متقاربة بعد أن فقدت الأم زوجها لتفقد معني المودة والسعادة، ثم تلي ذلك أن فقدت بصرها ففقدت بعده حتى الرغبة في الحياة ذاتها، لكنها بقيت هكذا راضية بالقضاء كما دأبت على هذا الأمر منذ صباها، أن ترضي بكل شيء مهما كان قليلا أو متواضع حتى أصبحت صفات تلك الأم الطيبة مضرب الأمثال، كانت سيارة سامح قد شقت الطريق

موغلة في شوارع القرية الترابية في أول النهار في طريقه إلى البيت الكبير لزيارة أمه والاطمئنان على أخته التي لم تنجو من ظلم وبخل أخيها الأوسط عادل الذي كان أكبر منها وأصغر من سامح لكن فرض على أموال أخته وحياتها وصاية غير شرعية فصار يتحكم في كل ما يخص تعاملاتها المالية، ولم تكن قد حانت تلك اللحظة التي وصل فيها سامح إلى القرية حتى ارتفع الأذان بمساجد القرية معلنا أن صلاة الظهر قد جاء وقتها، وبعد أن وصلت سيارة سامح إلى بيت العائلة الكبير بالقرية كان قد أبلغ أخيه قبل عدة ساعات أنه خلال دقائق سوف يتوجه إلى بيت أبيه بالقرية في زيارة إلى بيت وأرض أبيه قاصدا الاطمئنان على الأم التي كانت بمفردها بعد أن غابت الصغيرات في مدارسهن وخرجت أمهما قبل ساعة لشراء ما يلزم من طعام واحتياجات منزلية من سوق القرية القريب كعادتها كل يومين ولم يكن هاتفها المحمول بحوزتها لتعلم بموعد وصول سامح إلى القرية بعد أن وصل بصورة فجائية إلى بيت أمه ليطرق الباب فتبذل المرأة جهدا وعناء وهي تلتمس الطريق وتحدد مواضع الخطي مستندة بيدها إلى جدار يفصل بين الأريكة التي تجلس عليها وبين الباب الرئيسي للبيت، فكانت تسير ببطيء وهي تضع يدها على الحائط خشية السقوط رغم أنها كانت تتوكأ على عصا، إلا أنها لم تستعن بها في تلك المرة حتى فتحت الباب لتفاجئ بولدها الذي غاب عنها أسابيع طويلة، حتى إذا ما ولجت قدماه إلى داخل البيت وقبل أن ينطق حرفا واحدا

تفاجئه الأم بقولها:
– مرحبا يا سامح طالت غيبتك يا ولدي لعلك بخير
فارتمي سامح في أحضان أمه وهو يتصنع الابتسامة قبل أن يتأوه قائلا:
– عذرا يا أمي لقد مررت بظروف صعبة، وما حال بيني وبين لقائك إلا أمورا لم يكن من السهل على نفسي أن أتجاوزها
ثم قال مبتسما:
– كيف حالك يا سيدة نساء الدنيا؟
وعندها همست أمه وهي تبتسم في مرارة:
– حالي؟ ما المسئول بأعلم من السائل ثم عاتبته في سخرية:
– منذ متي وأنت تهتم بحالي؟
ثم ولته الأم ظهرها وسارت بخطي بطيئة حتى جلست على الأريكة القديمة فجلس أمامها وكأنها تراه لكنها شعرت باضطراب أنفاسه فهمست فجأة:
– اقترب يا ابني وأخبرني ماذا بك
ثم تنهدت بعمق وهمست مكررة عبارتها السابقة:
– ماذا بك يا ولدي؟
واقترب منها الرجل واضعا وجهه بين كفيها فما كان منها إلا أن ثبتت عيناها المفتوحتان بلا رؤية على وجهه كأنما تراه، وبدت نبراتها كالمغلوب على أمره فقالت في نبرات تفوح بالأسى كلمات قلائل كأنما شعر قلبها بما يعانيه الابن دون أن ترى عيني ولدها وما يكتوي به فؤاده وقبل أن ينطق به لسانه، فكتمت

آلامها عندما همست تطمئنه:
– أنا بخير لا تنشغل بأمري كثيرا فما عاد يعنيني من متاع الدنيا إلا قليلا
كانت عيناه قد تجمدت فيها الدموع لما رأى من أثار الزمن على وجه الأم قبل أن يتنهد وهو يحاول أن يبدوا طبيعيا عندما همس مواجها أمه:
– الحمد لله
ثم حاول بعدها أن يهرب من حصار الأم لروحه فنهض واقفا ثم دار بعينيه في أنحاء المكان الفقير الذي لم يتغير فيه شيئا منذ سنوات قبل أن يهمس قائلا:
– أين مريم وبناتها هيام ومرام؟
فقالت الأم وهي تربت على كتفه في حنان:
– كلهن بخير
ثم تنهدت وقالت في هدوء:
– دعك منهم وأخبرني لماذا أنت حزين؟ ماذا بك يا ابني؟
فارتفع حاجباه دهشة وقال لها وهو يمط شفتيه ولا يصدق ما تسمعه أذناه:
– كيف عرفت يا أمي؟
فقالت الأم وهي تهم بالنهوض:
– عرفت ماذا؟
فقال متأوها:
– كيف عرفت أني لست بخير رغم أنك..

ثم لاذ بالصمت بعد أن أمسك عن الحديث فجأة فقاطعته الأم قائلة في عتاب قاسي رغم ابتسامتها التي تفوح منها رائحة الحسرة:

– رغم أني لا أراك يا ابني؟

فقال معتذرا:

– عفوا يا أمي أقصد رغم انك لا تسمعين صوتي ولا تتابعي أخباري منذ فترة خصوصا وأني لا أتحدث مع عادل فيما يخص شئوني من زمن طويل

فقالت الأم وهي تهز رأسها في أسف واضح:

– قلب الأم يري بالبصيرة ما لا يراه المبصرون يا ولدي، ويشعر بالبعيد قبل القريب إذا ما كان قريبا من القلب والعقل وقد كنت أنت أول فرحتي من الدنيا ولا تزال أكبر همي وأكثر ما يشغل عقلي ليلا ونهارا

وهنا فقط تأوه سامح وهو يقول:

– صدق رسول الله حين قال "الجنة تحت أقدام الأمهات"

ثم أمسك بيدي أمه وقبلهما وهو يتنهد في مرارة قبل أن يقاوم ذلك الشعور المرير بالحسرة الذي سيطر عليه فجأة وهو يعيد السؤال على مسامع أمه مرة ثانية:

– أين مريم والبنات يا أمي؟ لم يعد للبيت حياة دون وجودها ومعها بناتها بين جدران البيت، فقد أشعرني البيت بغير صوتها بأنه يشبه جدران سجن يحيا به أسيرا يرفض الحياة، فكيف يتركونك هكذا؟

فقالت الأم مبتسمة في هدوء:

– لا عليك يا ولدي لقد تعودت على الصمت والظلام

ثم دار بعينيه في أنحاء الحجرة فإذا به يري صندوقا خشبيا كانت أمه تحتفظ فيه بثيابها رافضة التخلي عنه فلم يكن لديها أي استعداد لتغيير ما نشأت عليه من طباع وتقاليد عتيقة، كانت حياة الأم أكثر قربا إلى حياة من كانوا يعيشون حياة البداوة قديما، ورغم ذلك ما زالت تتمسك بها امرأة تعيش في القرن الحادي والعشرين، وترفض وتقاوم بشده أن تمتد يد الحضارة والتطور إلى مكان عاشت فيه شبابها وصباها، ولم تكن تري نظرة سامح إلى الأواني المتناثرة بأرضيات البيت في شتي الغرف، فقد كان الرجل ينظر باستياء وتقزز إلى كل شيء، لكنه لم يشأ أن يبدي امتعاضا وتبرما مما وقعت عليه عينيه من أوضاع مزرية تحيا بها امرأة كان يجب أو يفترض أن تعيش في واقع أفضل من ذي قبل، لكن هيهات أن يحدث هذا لامرأة فقدت بصرها وقوتها ولم يعد يعتني بها أحد حتى ابنها الذي أخذته بعيدا هموم الدنيا ومتاعبها فأجبرته على الغياب طويلا فصار لا يزورها إلا كل بضعة أسابيع، وكان وجود الأخت الصغرى وبناتها يكاد يبدوا صوريا، لكن سامح في ذلك اليوم مكث في بيت أبيه طويلا حتى عادت أخته من السوق وبعدها أطفالها فظل يلهو معهم وقتا طويلا حتى انتهت أخته من إعداد الطعام ثم تناول طعامه ومضي بعد أن أعطي لأخته قليلا من المال وغادر البيت متوجها إلى بيت أخيه القريب من منزل

العائلة طامعا في أن يقضي معه بضع ساعات لكن زوجة ابن أخيه استقبلته بشعور بارد يدل على عدم الاهتمام وبوجه خلت منه البشاشة، وعلى الرغم من ذلك دخل سامح بيت شقيقه فلم يلقي قبولا كما بدي على وجه الفتاة التي لقيت الرجل بغير ترحيب لائق ذكره بما كان يلاقي أبنائه من زوجته الجديدة، فقد ماتت زوجة أخيه أيضا قبل عدة سنوات تاركة له اثنين من الأبناء الذكور هما خالد وثروت، وقد سافر خالد الابن الأكبر إلى الخليج بعد وفاة أمه بشهور قلائل أما ثروت والذي تزوج فتاة من القرية كان أبوها رجلا من كبار العائلات كانت قد حجبت زوجة ثروت عن عادل الأخ الأصغر لسامح أي دعم من ابنه سواء معنويا أو ماديا، فلم يعد ثروت يشارك أباه في أعمال الحقل وأصبح مطيعا كل الطاعة لأوامر زوجته بينما أصبح في عيون الأب رمزا للعقوق وفساد الأخلاق وبوار الغرس في أرضا لم تطرح إلا ثمارا مرة كالصبار أو الزقوم، ولم يكن سامح يعتني كثيرا بفعال زوجة ابن أخيه فلم تجد كلماتها منه آذان صاغية، لكنه ودعها وانصرف إلى الحقل القريب حتى دون أن يسأل عن ابنة أخيه ليلي، الفتاة التي أنهت دراستها الجامعية منذ فترة فلم يعد يريد شيئا بعد أن انقبض قلبه ضيقا وضجرا عندما لقي زوجة ابن أخيه فلم يمكث بالبيت إلا دقائق وانصرف سامح إلى الحقل حيث لقي أخاه بوجه طلق وارتسمت على وجهه البشاشة عندما التمس دفئا يهب القلب راحة والروح طمأنينة بين أحضان أخيه ثم دار بينهما حديث الأشقاء المعهود ولكنه لم

يستمر طويلا، فقد أسرعت بهم دقات الساعة ولم تمهل سامح مزيدا من الارتواء بلقاء الأخ الذي خفف عن أخيه كثيرا مما يلاقي بعد أن بثه سامح شكواه من الدنيا والأيام، وأفصح عادل عن كل ما يعاني بعد غياب الابن الأكبر وتمرد الثاني وانعزاله وانطوائه ليدور في فلك زوجته التي لم يكن يجرؤ على أن يعصى لها أمرا، وقطع سامح تلك الرحلة متوجها إلى المدينة حيث يقيم بعد احتسي كوبا من الشاي أعدته له ابنة أخيه رحاب التي أنهت دراستها الجامعية بعد أربعة أعوام كانت فيها تغيب طيلة فترة الدراسة فلا يراها إلا في الإجازة الصيفية من كل عام لتنضم إلى طابور الباحثات عن العمل بحثا عن ملاذ جديد يحول بينها وبين حياة لا تخلو من الملل ورتابة الأيام، حتى يأتي الفارس المنتظر ليخطفها على جواد تحلم به كل فتاة بعد أن قتل الفقر والقهر كثيرا من الفرسان في معارك بلا سيوف مع واقع لا يرحم، وانتحرت الجياد حزنا على فرسان لم تكتب لهم الحياة أن يسطروا أسماءهم بحروف مدادها من الدم في سجلات البطولة في زمن لا بطولة فيه إلا لأصحاب الحظوة من ذوي المال أو الجاه، ومضت الدقائق التي يختمها المصريون كالعادة عند نهاية كل لقاء واقفون على أقدامهم كأنهم ينتظرون تحرك قطار حان موعد انطلاقه، وغادر سامح الحقل إلى سيارته، وعندما استقر خلف عجلة القيادة لم يكن يدور بعقله إلا سؤالا واحدا

"لماذا بقيت أمي الكفيفة بعيدة عن بيت أخي ولم ترضي أن تقيم في بيته وأصرت بكل شدة على أن تكمل حياتها في بيت

زوجها المعروق بالأخشاب حتى بعد رحيله بعدة سنوات؟"
لكن صوت العقل ينطق مدويا في أعماق سامح: "ومن لها بعد الزوج يا رجل؟ أنت وشقيقك عادل كلا منكم يغوص بعقله وقلبه في واد سحيق، وأما شقيقتك فليس بيدها ما تقدمه لامها بعد انفصالها عن زوجها تاركا لها طفلتين ترعاهما بعد أن تزوج بأخرى ورفضت أختك أن تتخلي عن طفلتيها مما جعلها في حاجة إلى من يرعاها هي وطفلتيها معا فإذا كان أخيك المقيم بالقرية انشغل بماله بعد غياب أبنائه، فماذا عنك أنت؟"
ثم ابتسم في مرارة معاتبا نفسه دون حديث لكن صدي الصوت كان يتردد في أعماقه عندما صرخ قائلا: "أنت بعد فقدان زوجتك وزواجك بامرأة لا تحنوا عليك ولا تعطف على أولادك، لقد تخليت طواعية أو كرها عن كل الناس حتى نفسك فلمن تترك أمر رعاية أمك؟ لنفسك التي تبحث عن من يحنوا عليها ويرفق بها؟ أم أخيك الذي طلق زوجته الثانية فبقي كالأعزب بعد أن مضي به قطار العمر وغطي الشيب جانبي رأسه؟ وبقي له شابان من الذكور ابتعد احدهما بحياته وصار الآخر يغوص بقلبه في بحار الضعف والهوان عندما أسلم زمام حياته لزوجة تقوده إلى أي مكان تشاء وقتما تشاء كما يقود الحادي البعير؟ لم يكن لدي تلك الأم خيارا تلجا إليه إلا أن تنجو بحياتها من أن تكون عبئا على أحد فاتخذت من عصا تتوكأ عليها سندا ورفيقا في درب الحياة"
ثم تنهد سامح متوجعا قبل أن يستل من غمد الخيال سيفا

ليواجه به جموعا وجحافل محتشدة عند مشارف القلب والعقل من جنود اليأس والانهيار والتحطم وضيق الصدر التي كانت تتأهب للانقضاض على قلبه وعقله، لكنه هاجمهم بسيف الأمل المرتعش في أعماقه ارتعاشه عصفور بلل المطر جناحاه فوقف وحيدا يرتقب شمسا دافئة تعيد إليه الحياة، ثم تنهد أخيرا وأسلم أذنيه إلى رائعة أم كلثوم حين ترنمت "يا فؤادي لا تسل أين الهوى"، وندت عن شفتي سامح المضمومتان نحنحة مقتضبة قبل أن يواصل الغناء متنهدا في توجع وقلبه يئن من الأعماق "كان صرحا من خيال فهوى" وأدار محرك السيارة ليلقي سمعه إلى النغمات الرائعة لسيدة الغناء العربي بعد أن امتد بصره ليتابع مع الطريق كيف تطوي سيارته الأرض طيا في طريق عودته إلى بيته وأسرته التي غاب عنها منذ الصباح الباكر ولم يكن يعلم ماذا تخبئه الأقدار له ولأبنائه خلال ساعات قادمة

الفصل الثاني

لم يكن سامح يدري أن الحياة لن تمنحه الفرصة ليهنأ بحياته التي فرضتها عليه الأقدار منذ أن توفت زوجته الأولى فألقت به الدنيا بما فيها من ابتلاءات بين يدي امرأة كانت في عيني زوجها في كآبة يوم عاصف ترب اشتدت به الريح فتعثر على فقير عابر أن يصل إلى بيته وأغلقت الحوانيت حتى لاح لعينيه شبح الموت جوعا يطارده كلما دار بعينيه يمينا أو يسارا باحثا عن ملاذ يأوي إليه، فما كان سامح يجد ملاذا سوي أن يغوص بقلبه وعقله في عالم أبنائه الصغار الذين أصبحوا يمثلون عالمه اللامحدود والذي به يجد البسمة والدواء لجراح القلب وعناء الروح، لكنه لاحظ أخيرا بوادر كارثة تلوح في الأفق عندما دخل إلى حجرة الفتي محمود ليطمئن عليه فوجده نائما لكنه رأى على وجهه دلائل شحوب واصفرار ملحوظ فنادي زوجته وقد أصابه غير قليل من الهلع:

– أمال! أرجوك اتركي ما بيدك وتعالي إلى هنا فورا!

فهرولت إليه زوجته بوجه عابس ممتقع وهي تصرخ فجأة:

– ماذا حدث يا سامح لقد أفزعتني؟

فقال وقد استبد به الغضب والرعب

– ماذا حدث لابني؟

ثم تنهد في حسرة و نهض من مكانه عند نهاية سرير الفتي

النائم وأمسك بذراعيها في عنف وأظافره تكاد تغرس في لحمها:
– كيف يمرض الولد إلى هذا الحد وتتجاهلين أمرا مثل هذا؟
وأطلق زفيرا حارقا قبل أن يلوح بيديه غاضبا:
– لماذا لم تبلغيني؟
فقالت في نبرات مرتبكة:
– ظننتها سخونة عابرة نتيجة نزلة برد تقليدية وسوف تزول بالعلاج
هز سامح رأسه أسفا وقال في نبرات صارمة:
– لا يوجد في المرض تقليدي وغير تقليدي كان يجب عليك إبلاغي فورا
تخلصت من يديه وهي تقول في غضب مكتوم:
– ابنك أمامك افعل ما شئت، ولكن انتظر للصباح حتى تتاح فرصة للعرض على طبيب فقد تأخر الوقت وسوف أقوم بعمل إسعافات أولية حتى تستقر حالته
فرمقها سامح بنظرة حارقة لكنه كبح جماح غضبه واتجه إلى باب الشقة ثم خرج إلى الشارع بعد أن أغلق الباب خلفه في غضب عارم اتقاء لمزيد من التصعيد حرصا على راحة الطفل النائم، وعندما لفحت وجهه نسمات الهواء البارد أشعل سيجارة ونفث دخانها في الهواء ليتخلل الدخان خصلات شعره لكنه هتف من أعماقه بغير صوت:
– لماذا أوقعني حظي العاثر في مثل هذه المرأة التي تحيا بلا قلب؟ وجعلت حياتي كلها كمدينة خاوية لا تكسو أرضها إلا

جبالا من الرمال لا ينبت فيها إلا حدائق الأشواك ولا ينضج فيها بغير حصاد إلا الجراح والآلام فلا يجني حاصدها إلا الدموع
ثم تحركت شفتاه هامسا:
– أي ذنب اقترفت في حياتي لأنال مثل هذا العقاب؟ وفي حق من أذنبت؟ ومتي كان هذا الجرم الكبير الذي عاقبني الله به بامرأة لا تدع شاردة ولا واردة من أمري إلا وأشبعتني بها تقريعا وتعنيفا وسخرية، ليتني أستطيع الآن أن أُطلقها وأتزوج بغيرها
ثم تنهد في مرارة وهو لا يسمع إلا صوت أنفاسه المضطربة وقد اسند ظهره إلى جذع شجرة وبقي سابحا في خيالات مريرة لدقائق طويلة
عاتب نفسه فيها عتابا مرا عندما سأل نفسه في مرارة:
– من تلك التي يمكن أن تقبل بكهل مثلي ترمل ثم طلق إذا ما فعلت؟ فلست ثريا بما يسيل له لعاب الجائعات من النساء اللواتي يعتبرن المال قبلة متعبد، ولست شابا فتيا حتى تقع غرام من هو مثلي من تهوي فروسية الرجل في الميادين الناعمة عندما تخفت الأضواء، فلما ترضي بي من اتخذها بديلا عن لعنتي الحالية، وماذا يغري بي فتاة خضراء يانعة كورود الربيع بعد أن وهن عظمي واشتعل رأسي شيبا.
ثم مص شفتيه أسفا وبحث عن مقعد رخامي كبير يتوسط الرصيف وقد غطت ظلال الأشجار جوانبه فألقي عليه بجسده المنهك ونظر إلى الأرض طويلا بعد أن أشعل سيجارة أخرى وتلاحقت الأنفاس منها حتى احترق ما تبقي منها في يده وهو

يري صورة ابنه النائم ماثلة إمام عينيه في فضاء ممتد بلا نهاية حتى عاد به إلى واقعه نباح كلب فنهض مسرعا وهو يلملم شتات نفسه عازما على العودة إلى حياته ليصارع أمواجها بكل ما أوتي من قوة لعله يجد من ضيق الصدر وعسر الحال وتشتت الخاطر مخرجا، وسار في طريقه لا يسمع حتى صوتا هامسا سوى تلك الأصوات التي ترامت إلى مسامعه من نوافذ وشرفات شتى لقنوات تليفزيونية تعرض ألوان شتى من الدراما الشرقية والتي كانت قد استحوذت على إعجاب المشاهدين في مدن مصر وقراها في الآونة الأخيرة، فنبتت على شفاه الرجل الجافة ابتسامة ارتفع معها حاجباه دهشة ثم هز رأسه متعجبا مما تغير إليه الحال ولم ينطق بحرف واحد حتى وجد نفسه يوصد خلفه باب شقته في هدوء تام فتسلل إلى غرفة الابن للاطمئنان عليه فوجده نائما وقد انتظمت أنفاسه واعتدلت درجة الحرارة فرفع عينيه إلى السماء شاكرا وتمتم هامسا:

– الحمد لله

ثم سار على أطراف أصابعه بعد أن اطمأن على ابنته ليفتح باب غرفته في هدوء قبل أن تدهمه معزوفة من النغمات الرائعة من أصوات أنف زوجته النائمة والتي اعتادها كل مساء عندما تخلد زوجته إلى النوم كل مساء، لكنه تجاهل كل هذا وبدل ثيابه ثم آوي إلى فراشه طمعا في قليل من الراحة حتى تشرق شمس اليوم التالي ليواصل صراعه مع الحياة غير مكترث بتلك العواصف الرعدية التي يموج بها قلبه وعقله.

وفي صباح اليوم التالي اصطحب سامح ابنه إلى طبيب متخصص في أمراض القلب ليفاجئه الطبيب بما قلب حياته رأسا على عقب حيث أبلغه بأن أحد صمامات القلب يحتاج إلى جراحة عاجلة، وبعدها خرج الرجل في صحبة ابنه وهو لا يدري أين تأخذه خطاه، لكنه حاول قدر جهده ألا يبدوا عليه شيئا من آثار تلك الصدمة المروعة حتى يتدبر الأمر ويعد العدة جيدا لما هو قادم، وبعد دقائق كان الرجل قد أحضر بعض الأدوية اللازمة لعلاج بعض المشكلات البسيطة التي يعاني منها الفتي وقد انفجر بركان من الحزن داخل قلب الرجل لم يكن من اليسير على الأب أن يسيطر عليه، فقد مضت عده أيام والرجل لا يتكلم إلا قليلا ويخيم الصمت عليه معظم الوقت حتى سئمت زوجته هذا التحول فقررت أن تضع له نهاية عندما باغتته بقولها:

– ماذا بك يا سامح؟ مالي أراك واجما على غير عادتك؟

فقرر سامح أن يطرق الحديد وهو لا يزال متوهجا ولم يكن يقدر عاقبة فعلته تلك فقال فجأة:

– قررت أن أبيع سيارتي

اتسعت عينا زوجته عن آخرهما وهي تصرخ في وجهه:

– تبيع سيارتك؟ لماذا؟ وكيف تذهب إلى عملك؟

ثم ضغطت على باطن شفتها السفلي بأسنانها وهي تستطرد في مرارة:

– ألا تري ما عليه حال الشوارع في القاهرة حاليا؟ وماذا تنوي أن تفعل بثمنها؟

وابتسم سامح في سخرية وهو يردف قائلا:
– سوف اشتري أسهم في بورصة وول ستريت، وعندما أربح سوف أواصل حتى أصبح مليونيرا، ثم أتزوج غيرك ثلاثة من النساء، فإذا رفضت فسوف تحل محلك بعد طلاقك زوجة رابعة
ثم انفجر ضاحكا في مرارة وهو يهم بمغادرة المكان وهو يقول في سخرية:
– لا يعود إلى الشقاء من تذوق الرفاهية إلا من تعرضت حياته للخطر أو سار على حافة هاوية ربما يخسر بها نفسه أو أعز من لديه
وصمت فجأة لحظات وهو يحدق في وجه زوجته حتى كادت دمعة ساخنة أن تفارق عينية متجاوزة أسوار الكبرياء الشاهقة التي حالت بينه وبين البكاء فأثار في نفس زوجته شعورا غامضا بالرعب فقالت فجأة وقد جف حلقها:
– ماذا بك يا سامح؟ اخبرني بالله عليك، ومن تقصد بأقرب الناس لديه في حديثك؟ إني أكاد افقد عقلي فلا تتركني هكذا
واستدار سامح ليواجه زوجته التي كانت بأفعالها قد تسببت فيما مضي في أن يعرض عنها بقلبه قبل جسده لكنه أمسك بيديها وقال هامسا:
– أغلي ما عندي في الحياة هو ابني يا أمال
ثم كرر وهو يقاوم عاصفة من الدموع:
– حياة محمود في خطر ولابد من إجراء جراحه عاجلة بالقلب

وأخذت المرأة بزوجها وابنه في تلك اللحظة شفقة غير معهودة منها، فقالت في حزن وهي تضرب بيدها على صدرها:
– يا حبيبي يا ابني؟
فجأة تسمر سامح في مكانه ثم احتوي كفيها بين يديه وهو يهمس قائلا:
– ادعي له الله أن يكتب له شفاء عاجلا غير آجل، وأكثري من الدعاء لي أن أخرج من تلك الأزمة برحمة الله وكرمه، فأنت لا تعلمين شيئا عما أعاني في حياتي العملية ولا عن ظروفي المادية شيئا، لكني أثق أن الله سوف يخلق لي برحمته مخرجا من ذلك الضيق رأفة بهذا الفتي
ولم تمضي دقائق حتى غادر سامح بيته ومضي إلى جهة لم يكن يعلمها، فقد آثر أن يخلو بنفسه في مكان بعيد بعد أن أدخلته حالة ابنه الصحية الحرجة مدينة الأحزان، تلك المدينة التي لم يكن يصل إلى أذنيه منها إلا عويل النساء، ولم تري عينيه التي تنظر إلى الأفق إلا دموع الرجال، وجفت بساتين الفرحة في روحه عندما تلاشت حتى الابتسامة التي تكسو وجوه الأطفال التي مرت على صفحة الذهن كالبرق الخاطف فذكرته بابنه الذي يصارع الموت كغريق لا يجد في الأرض كلها طوق نجاة، فرفع الرجل بصره بعد أن أجهده المسير وتمتم هامسا في خشوع:
– رب إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي فلا تعاقبني بما أذنبت طيلة عمري بهذا البلاء الذي ناءت به روح المصطفين

من عبادك وأنبيائك يا أرحم الراحمين
ولم يقوي الرجل حتى على البقاء قائما على قدميه فسقط كبيت ضربه زلزال مدمر على مقعد قريب وأجهش بالبكاء قبل أن يشعل سيجارة وراح ينفث دخانها في توتر لم يعهده من قبل وهو يحاول أن يتدبر الأمر وكان السؤال الحائر في رأسه، كيف يدبر النفقات اللازمة لجراحة عاجلة يحتاجها ابنه الذي لا تسمح له ظروفه الصحية بالانتظار حتى يتكرم أحد المسئولين في هذا البلد بإصدار قرار بعلاج الفتي على نفقة الدولة، فكان على الرجل أن يبحث في ثلاث مسارات متوازية كان أول هذه المسارات أن يقترض من أخيه الذي حافظ على ما ورثه من أطيان زراعية خلافا لما فعل هو عندما باع كل شيء حين ضاقت به الحياة في تلك القرية التي نشأ فيها فهجرها إلى المدينة واشتري شقته التي يقيم بها ومعها قطعة أرض صحراوية لم تكن بعد قد آتت ثمارها على طريق أسيوط القاهرة الغربي، وقد حال بينه وبين التفكير في بيعها عدة ظروف لم يكن لديه متسع من الوقت للتفكير في التغلب عليها، وكان أهم تلك العقبات ما تخبئه له الأيام إلى جانب أنه يعتبر هذه الأرض مكان أكثر أمانا لادخار بعض المال اتقاء لتقلبات الأيام، ومع ذلك لم تسلم تلك الأرض من شر طمع الطامعين حيث وضع أحد أعضاء البرلمان نصب عينيه السيطرة على تلك القطعة وضمها إلى أملاكه من خلال شرائها منه بأبخس الأثمان، ولذلك اتبع عضو البرلمان وبعض من أعوانه أساليب ملتوية لإجبار سامح على الرضوخ لرغباته من

خلال إعاقة ري الأرض عدة مرات، ومنع وصول المياه إليها في الموعد المحدد، وإحراق المحصول قبل أن يتم حصاده في أحد المواسم الزراعية، حتى ضاق الرجل ذرعا بكل هذا وفكر جديا في التخلص منها، ولذلك قرر زيارتها في عصر أحد الأيام، وعندما وصلت سيارته إلى هناك فوجئ بما لم يكن يتصوره، حيث وجد حشد من العمال يقيمون سورا يرتفع عن الأرض ما يقارب مترا ونصف المتر حول قطعة ارض مجاورة تخص الصديق جمال عبد الرحمن، الإعلامي الشهير بإحدى القنوات التليفزيونية، والذي جمعته بسامح علاقة صداقة قديمة، وعندما وقعت عينا سامح على الرجل أشرق نور وجهه بابتسامة رقيقة عادت به إلى ذكريات جميلة لزمن مضي عليه ما يتجاوز عشرون عاما ولم تكن تفصل بينه وبين الرجل سوي عدة أمتار اجتازها سامح ثم تعانقا وكل منهم يتأوه من فرط ما فعلت بهم الأيام قبل أن يهمس إليه سامح:

– مرحبا بك يا حاج جمال

ونظر إليه جمال قبل أن يرفع حاجبيه مندهشا وهو يحملق في وجهه ثم انفجر ضاحكا:

– سامح درويش؟

ثم تلاحقت أنفاس الرجل وهو يتحدث بسرعة فائقة كأنما يقرأ نشرة الأخبار:

– أين أنت يا صديقي؟ كيف حالك مع الأيام؟ وما الذي أتي بك إلى هذه البقعة القاحلة من الأرض؟ ولماذا يبدوا على

وجهك كل هذا الأسى؟
ثم تنهد وقد هدأت أنفاسه قبل أن يقول في هدوء شديد كهدوء عاصفة بعد ثورتها:
– تغيرت كثيرا يا سامح وظهرت على قسمات وجهك بصمات الزمن القاسية
واحتوي سامح بذراعه كتفي الرجل قبل أن يهمس في هدوء وبنبرات غامضة المعني:
– لا عليك يا صديقي
فنظر إليه جمال متعجبا من ردة فعله فأردف سامح قائلا:
– دعك من آثار الزمن وما فعل بنا واخبرني كيف جئت أنت إلى هذه الأرض؟ وما شأن هؤلاء العمال؟ ولماذا يقيمون هذا السور؟ ولماذا تكلف نفسك؟
تنهد الصديق جمال وهو يتهاوى بجسده الضخم فوق مقعد خشبي قبل أن يعبث بشاربه الضخم ذو الشعر الأصفر الذهبي وينزع نظارته عن عينيه الخضراوين لينظف عدساتها مما لحق بها من غبار الطريق لكنه لم يرفع عينيه عن سامح الذي انشغل بالبحث عن مقعد آخر قبل أن يجلس مواجها صديقه ثم يكرر عليه ما سبق من أسئلة قبل أن يقاطعه جمال:
– هل تشرب شاي أولا؟ أم نرسل أحد العمال ليحضر لنا طعاما؟
فقال سامح:
– أخبرني أولا ما الذي جاء بك إلى هنا؟

ثم تنهد في عمق:
– هل هذه أرضك؟ أم انك شريك فيها؟
فقال جمال:
– هي أرضي ولست أملكها، وأقيم حولها سور لحماية العمال من الزواحف والعقارب وكل الحشرات السامة وغيرها ولذلك سوف نضع أسلاك شائكة فوق السور ونجعل بينها وبين السور فواصل حديدية إلى جانب وجود شبكة حديدية للحماية من التراب والعواصف الرملية.
رفع سامح حاجبيه دهشة قبل أن يهتف متعجبا:
– كيف؟ هل ما زلت تهوي حل الكلمات المتقاطعة كما كنت سابقا في أيام الجامعة؟
فقال جمال في هدوء بعد أن تنهد مبتسما:
– لا عليك يا صديقي فهي أرضي وارض أخي أكرم
فهتف سامح صارخا:
– أكرم معلم الرياضيات الذي كان يعمل منذ فترة مديرا لإحدى المدارس بعد عودته من الخليج؟ ألم تقل أنه كان يكتفي براتبه كمعلم وأنه من الزاهدين في متاع الدنيا عندما لم يهبه الله أولادا؟
ورفع جمال حاجبيه دهشة قبل أن يبتسم في سخرية وهو يهز رأسه متعجبا قبل أن يستطرد قائلا:
– أقصد أنها أرض لي أنا وأخي أكرم معا، وهل يكفي مرتب المعلم الآن لشراء الخبز وحده يا سامح؟ ألا تحيا معنا على هذه

الأرض يا صديقي؟
فقال سامح وقد نظر إلى الأرض وهو يهز رأسه في أسي
– لقد اشتقت إلى لقاء هذا الرجل فلا أنسي قلبه الطيب وأفعاله الطيبة أليس هو أكرم، المعلم الأب لكل زملائه والأخ للكبار منهم والذي كاد بتبني يوما زواج إحدى الخريجات ويوفر لخطيبها شقة كاملة في منزله لأنه كان مغتربا وكانت الفتاة مغتربة في ذلك الوقت قبل أن يكتشف أكرم حقيقة علاقة الفتاة بشاب آخر فيتملص من تلك العلاقة التي ربطت بينه وبيت الفتاة كمدير أو رئيس عمل؟
رد جمال وهو ينظر إلى الأرض وقد غشيت قسمات وجهه سحابة من الحزن:
– نعم معلم الرياضيات الذي لحق به ما يعاني منه كل معلمي مصر من مذلة وهوان إلا من رحم ربي
فاقترب سامح منه وهو يرتب على كتفه في هدوء وقد أصابه بعضا من القلق:
– ماذا بك يا جمال؟ ماذا لحق بالرجل أخبرني بالله عليك؟
فقال جمال وقد مص شفتيه المضمومتان أسفا:
– يا صديقي حال المعلم في بلادنا أصبح أحق بالرثاء منه بالفخر، فليس حال أكرم وحده سبب حزني، فماذا بعد أن يمد المعلم يده لأولياء الأمور؟ وماذا بعد أن يتجول بين مراكز الدروس أو أن يقضي يومه كاملا خارج بيته؟ من يتعهد أولاده بالتربية والرعاية والتعليم إذن؟ هل تعلم أن أكبر نسبة من

المقترضين من البنوك بضمان رواتبهم من موظفي الدولة
هي من المعلمين في مصر؟ دعني وأحزاني يا سامح ولا تنكأ جراحي يا صديقي
فعقد سامح ساعديه أمام صدره ثم نظر إلى الأرض ولم يتفوه بكلمة، لكنه كان يتنهد في مرارة بعد أن مص شفتيه أسفا عندما فوجئ بما يسمع لأول مرة، عندما تيقن أن المعلم في مصر أصبح أمام خياران لا ثالث لهما من خلال حديث جمال عندما قال:
– إما أن يفني المعلم حياته باحثا عن المال من عمله، أو أن يبيع راحته وتفرغه للمهمة المقدسة للمعلم بالبحث عن عمل بديل ليجد ما يحقق له حد الكفاف، وإلا سوف يبقي تحت خط الفقر في حياة غير آدمية، بينما يرى أولي الأمر والمسئولون كل معلمي مصر من علية القوم لأنهم لا يرون إلا أباطرة المراكز التعليمية الخاصة، الويل في مصر لمن حاصرته وسائل الإعلام بالاتهامات الزائفة يا صديقي
قالها جمال وقد استبدت به الحسرة والألم لكن سامح فاجأه قائلا في مرح:
– أين سيارتك الجديدة الآن؟
ثم مازحه سامح بجذبه من أذنه ليخرجه من دوامة اليأس وبعدها سأله فجأة قائلا:
– كيف حال أكرم؟ وأين هو الآن؟
مط جمال شفتيه أسفا ثم هز رأسه في حيرة وهو يقول:

– لا أجد ما أقوله لك لكن اطمئن، أكرم بخير وكان يعمل مديرا لمدرسة بمركز أبو المطامير بمحافظة البحيرة قبل أن يعود إلى موطن العائلة الأصلي بمحافظة بني سويف

وانعقد حاجبا سامح دهشة وهو يقول في نبرة لا تخلو من سخرية مغلفة بالدهشة:

– ماذا جمع بين الشام واليمن؟

فنظر جمال إلى سامح مندهشا وهو يرفع حاجبيه دون حديث فصاح سامح مبتسما إني أتساءل فقط:

– ماذا جعله يعمل في البحيرة وهو في الأصل من بني سويف؟ عرفت الآن يا جمال لماذا قلت ماذا جمع بين الشام واليمن؟ كيف يعمل بالبحيرة في أقصى الشمال وهو في الأصل من بني سويف التي تعتبر بوابة صعيد مصر وبداية الجنوب؟

فضحك جمال ضحكة بدت شاحبة كوجه الميت وقال في سخرية وبنبرة تهكمية:

نعم عرفت سر سؤالك ماذا جمع بين الشام واليمن ثم انفجر ضاحكا بغير سبب:

– إنها الوحدة العربية.

وتنهد سامح مبتسما:

– هل تظن نفسك جمال عبد الناصر؟

ثم أشعل جمال سيجارة نفث دخانها في الهواء قبل أن يستطرد قائلا:

– أكرم لم يقرر العودة إلى بلدتنا الصغيرة بمركز الواسطي إلا بعد

أن دارت به الدنيا كثيرا ولم يعد يطيق من شقائها فوق ما احتمل فقال سامح بنبرة لا تخلو من دهشة واستنكار:

- شقاء؟

ثم ضغط على شفتيه بأسنانه قائلا:

- أي شقاء هذا؟ هل يربح مدرس الرياضيات من عمله قليلا حتى يعاني ويشقي كأي فقير؟

فقال جمال:

- لم يكن أخي يربح قليلا فقد يسر الله له كل سبل الرزق الوفير والرفاهية وكل ما يحقق السعادة كما يبدوا أمام الناس لكنه لم يكن موفقا في شيء، تزوج عدة مرات ثم طلق زوجتين ولم يكن مقدرا له أن ينجب من كل زيجاته تلك حتى تزوج زوجته الثالثة التي تحيا معه الآن، فإنه رغم محاولاته المستميتة للعلاج لم ينجب منها أيضا، ولك أن تتصور لم تنجح أيا من مشروعات أكرم التجارية وكأنما نزعت البركة من ماله انتزاعا

فضرب سامح كفا بكف وهو يقول مستنكرا وقد بدت على وجهه علامات الدهشة:

- سبحان الله العظيم ما تقوله يوحي بأنه هذا الرجل يتاجر بالمخدرات وليس مجرد معلم بإحدى المدارس فماذا فعل في حياته حتى يحدث له كل هذا.

وظهرت علامات الضيق على وجه جمال فهرب من صديقه عندما قاطعه قائلا:

- حدثني عنك أنت كيف حالك يا سامح؟

فارتمي سامح فوق مقعده الذي تركه منذ لحظات ليصنع كوبين من الشاي يلتمس الصديقان بهما بعضا من الدفء عندما أطبق الليل على المكان

ثم تنهد قائلا في حسرة:

– رانيا ماتت يا جمال وتركت لي طفلين أكبرهم محمود في السنة النهائية بالمرحلة الإعدادية، ثم هدير في الصف السادس الابتدائي، وتزوجت بعدها زوجه ثانية ولم تنجب، وفقدت أمي بصرها بعد وفاة أبي بخمسة أعوام، ولم تقبل أن تترك بيتنا القديم الذي تزوجت فيه أبي وأنجبتنا أنا وأخي وأختي وحاولت مرارا أن أعالجها ولم تجد المحاولات نفعا حتى، مرض ابني فشغلني همي الأكبر عن المصيبة الأقدم

فقال جمال مبتسما في مرارة:

– الله ينكد عليك يا سامح، ما هذا يا أخي عدت بي إلى رائعة السينما المصرية، فيلم الحرام الذي لم يكن فيه سوي مشاهد الفقر والجوع والمرض

ثم انفجر ضاحكا قبل أن يستطرد:

الله يسامحك يا صديق العمر ويصلح حالك يا أخي، ربما أحيا ويمد الله في عمري لأري فيك يوما اسود كما سودت حياتي اليوم

فقال سامح وقد تحولت ملامح وجهه إلى الصرامة فجأة:

– أريد أن احصل على المال لعلاج ابني بأي تضحية ممكنة، سأبيع الأرض وأبيع سيارتي وعلي أتم استعداد أن أبيع عمري

نفسه، المهم أن يعالج ابني بأقصى سرعة
ونهض جمال فجأة وهو يقول موجها حديثه لسامح:
– عندي حل لن تبيع معه أرضك ولا ثيابك ولا سيارتك ولا أي شيء، وهناك حل آخر ربما يكون أصعب وقد يستغرق وقتا أطول فلنجرب أول الحلول وإذا لم يكتب الله لك نجاحا فعليك بالعودة إلى الحل الثاني وبأذن الله تحصل على المال ولن يخذلك الله أبدا
فبدت على وجه سامح الدهشة وهو ينظر إلى وجه جمال الذي هب واقفا وكان صديقه لا يزال جالسا فقال له وهو يصرخ كما وجد ضالته بعد فقدها:
– اذهب إلى أخيك يا صديقي واسأله أن يقرضك بعضا من المال إلى حين انفراج الكرب وشفاء ابنك
فابتسم سامح في سخرية وهو يهز رأسه متعجبا من قول صديقه قبل أن يرد في مرارة:
– ما أتيت بجديد على الأسماع
ثم تنهد بعمق وهو يعود إلى الوراء برأسه التي زحف الشيب إلى خصلات الشعر المبعثرة فوقها كحصيد هبت عليه رياح عاتية في يوما عاصف وقال بعد أن شبك أصابعه خلف رأسه
– عادل يعلم عني ما لا تعلمه يا جمال لكنه يحب المال أكثر من حبه لنفسه ولأولاده وأنا أعلم أنه لن يعدم الحجج والذرائع التي يمكن أن يلجأ إليها تفاديا للحرج إذا ما طلبت منه أي نقود وتأفف جمال غيظا ثم مص شفتيه أسفا قبل أن يتمتم هامسا:

– يا صديقي خض التجربة فلن تخسر شيئا ولن تطرق باب لئيم
ثم حدق في عينيه طويلا وقد ران صمت لم يقطعه ثمة حديث حتى هب جمال معاتبا:
– إذا لم يقف الأخ بجوار أخيه في محنة كهذه فما قيمة الأخوة وصلة الدم؟
فقال سامح هامسا وقد استبد به اليأس:
– صدقت يا جمال سأطرق كل الأبواب حتى وإن كانت موصدة أو محكمة الإغلاق بأغلال من حديد وأقفال غابت مفاتيحها، فعند الله مفاتيح كنوز الأرض والسماء
ثم نهض مودعا صديقه بعد أن حياه بابتسامة فاترة لكنه في تلك اللحظة وعده بتكرار الزيارة، فقد جمعتهما صداقة بعيدة منذ عهد الدراسة الجامعية، ولكن الحياة فرقت بينهما حيث عمل جمال كمقدم برامج بإحدى قنوات التليفزيون الخاصة وكان سامح لا يزال حتى الآن موظفا بمؤسسة كبرى للتصدير وإن كان عمله قد تأثر في الفترة الأخيرة ببعض الظروف السيئة التي لم يشأ أن يذكرها في لقائه الأول مع جمال عندما قضى معه دقائق، ثم استقل سيارته متجها إلى المقابر لزيارة قبر زوجته الراحلة رانيا، وعندما وصل إلى المقابر أطفأ محرك السيارة وغادرها متجها إلى قبر زوجته ليتلو بعض آيات من القران ثم رفع يديه بالدعاء وظل يهمهم بدعاء غير مسموع رغم أنه لم يكن هناك على هذه الأرض سواه ولم تمض دقائق معدودة حتى هبت عاصفة ترابية عنيفة اضطر معها إلى ارتداء نظارة شمسية لتقي عيناه مما قد

يصيبهما من أذى، لكن لم يكن يدري أن الأقدار دفعته لأن يواري دمعتان فارقتا عيناه رغما عنه قبل أن يسمع صوتا قادما من أعماق نفسه، كان عنيفا كالرعد يهتف به صارخا وفي نبرة أقرب إلى التوسل منه إلى ما سواه قبل أن تستعيد أذناه ذكرى ذلك الصوت الخالد في أعماقه والذي ناداه قائلا:

"ابننا يا سامح لا تتخلي عنه أبدا فلم يعد له سواك، ولن أستطيع أن أكون بجواره"

ووضع الرجل يداه على القبر وهو يشعر بالاختناق حتى نزع رابطة العنق وتمتم هامسا بعد أن شعر أنه يسمع صوت زوجته الراحلة والتي تماثلت صورتها لعينيه:

– لا تخافي يا رانيا، فليرحمك الله، وكوني بين يدي ربك على يقين أنك في قلبي حتى ألقاك، ولن أفرط في تلك الأمانة حتى ألقاك، وسوف أطوي الأرض طيا لو تطلب الأمر حتى يشفي ابننا

ولم يطق الرجل البقاء أكثر من هذا فقاوم شعور عارم بالحزن سيطر على قلبه شعر معه بأن خدرا عميقا يتسلل إلى جسده فخشي أن يسقط مغشيا عليه بعد أن اشتدت الريح ووجد من حفيفها على أوراق الأشجار رعبا أصابه بالاكتئاب الشديد، فأشفق على نفسه وآثر الابتعاد عن المكان متجها إلى سيارته قبل أن يستقلها متوجها إلى بيته ليطمئن على حالة الفتي الذي أصبح لا يشغله في الوجود سواه وكانت قد مضت ساعة قضاها مع ابنه بعدها لم يعد بإمكانه أن ينسي تلك اللحظات التي كان

فيها ينظر إلى القبر حين بدأ يتحرك مبتعدا مودعا رفات امرأة سكنت قلبه وعقله وروحه مفارقا ما بقي من رفات وذكريات الزوجة التي قضي معها أجمل أيام حياته في حزن شديد، وعاد بذاكرته إلى تلك اللحظات القاسية عند زيارته لقبر زوجته وبعدها بأيام قليلة كان قد استقل سيارته متوجها في عصر أحد الأيام إلى بيت أبيه الراحل ليطمئن على أمه قبل عودته إلى بيته مرة أخرى ليتابع حالة ابنه الصحية وقد سكنت الرياح وهدأ حفيف الأشجار وهدأت صيحات الروح التي تئن ألما ولم يبقي سوى أصوات البوم الذي ينعق في السماء التي تظل رأس الرجل في ليل هذا اليوم الذي عاد فيه من قريته كسير الفؤاد عندما خلا إلى نفسه قريبا من بيته وهو لا يشعر إلا بالإعياء الشديد بعد أن أصاب الصداع العنيف رأسه الذي يغلي بما يدور فيه من أفكار وقلبه الذي يئن من الحنين إلى ماض طواه الردى بموت زوجته التي كانت ولا تزال حتى تلك اللحظة تسكن القلب وتسيطر على الروح التي تهفو إليها، رغم أنه يعامل زوجته بعدل يليق برجل شرقي، لكنه لم يحبها يوما وإنما تزوج بها ليتقي الوحدة وعذابات الحرمان، وليجد من يعينه على أداء مهمته تجاه أبنائه بعد رحيل أمهما التي كانت تعدل في عينيه كل نساء الأرض قاطبة في كيان أنثي واحدة لم ولن يحب سواها حتى يلقاها، ولكن سامح الذي اقترب من بيته عاد بفكره وعقله إلى واقعه الشائك فتنهد في يأس وهو يرنو ببصره إلى كبد السماء سائلا الله في صمت أن يجد له من تلك الكروب المتوالية مخرجا،

آملا حين تقرع دعوته أبواب السماء فيلقى رجاؤه استجابة وقبولا، ومضت دقائق قبل أن يجتاز سامح درجات السلم إلى باب شقته فوجد زوجته التي استبد به القلق تنتظره بوجه عابس فقال ليقطع بينه وبينها سبل الحديث حتى يرحم نفسه من عتاب قاسي:

– كنت في مكان لا يتاح فيه لأحد أن يتصل بالآخرين

فابتسمت في سخرية وقالت متهكمة وهي تكبح غضبها المجنون:

– هل كنت فوق سطح القمر أم كنت في اجتماع مع رئيس الوزراء؟

فقال في سخرية مماثلة ليقطع عليها سبل الحديث حتى الصباح:

– كنت في المقابر لأدعو لأبي أن يتغمده الله بواسع رحمته فهل لديك ثمة اعتراض؟

فقالت وهي تعض على شفتيها وتطلق زفيرا حارقا:

– لا أبدا ليس عندي اعتراض على ما تفعل، ولكني زوجتك ولي حقوق عليك أقل شيء منها أن أطمئن عليك عند غيابك رحمة بي وبابنك المريض

فأشار إليها بيده في دلالة على أنه لا يريد مزيدا من الجدال قبل أن يغلق خلفه باب حجرته ثم عاد إليها هامسا حتى يجيب على سؤال لم تسأله زوجته عندما رأت على وجهه دلائل الإرهاق والحزن فقال لها فجأة:

– أنا لا أريد طعاما ولا أريد قهوة واعذريني لأني مرهق جدا وغدا

لنا معا حديث طويل

وعندما خلا إلى نفسه لم ينم ليلته قط، فقد تذكر ليلة زفافه بزوجته الأولى ولحظات عقد القران وما تبعها من أحداث، ثم تنهد الرجل في أسي وهو يشعر أن ما يجيش به صدره قد ضاقت به الدنيا كأنما انهار عليه جبلان عظيمان، فكان يتنفس في صعوبة حتى انهمرت دموع ساخنة فارقت عيناه رغما عنه فمسح وجهه بكلتا يديه قبل أن يتمتم مستغفرا وحاول قدر جهده أن ينام بعد أن أطفأ مصابيح حجرته حتى غلبه النعاس فاستسلم للنوم تاركا زوجته في حجرة مجاورة وهي تتابع بشغف أحداث فيلم عربي للنجم الكبير "فريد شوقي" الذي كانت أعماله الفنية قد بدأت تسيطر على الشاشات داخل كل البيوت والمقاهي في ريف مصر ومدنها وقراها في ذكرى وفاته دون أن يشغل سامح عقله في ذلك الوقت بمحاولة تفسير هذا الأمر ولماذا يتابع الناس في كل مكان وعلي اختلاف مستوياتهم الاجتماعية الثقافية واختلاف المراحل العمرية أعمال هذا الرجل الفنية في شتي ربوع مصر منذ فترة طويلة.

الفصل الثالث

في صباح اليوم التالي، استيقظ سامح متأخرا من نومه وهو يشعر بالتوجع والألم، لكنه قاوم الإجهاد العنيف ونهض من فراشه رغم برودة الجو، ثم تحرك في بطئ حتى لا يزعج أبنائه في يوم أجازة طارئة كانت في ذكرى مناسبة قومية في مصر، وقد حرص على تجنب إزعاج زوجته أيضا حتى لا يصيبه من كلماتها ما يكدر صفوه ليزيد من ألمه وشقائه فيتضافر على قلبه وعقله ما يعاني من آلام البدن إلى جانب ما يحاول أن يتحاشاه من صداع مزمن لا يفارقه عندما تقرع إذنيه كلمات السخرية اللاذعة من زوجته، فوضع الرجل منشفته على كتفه وأخذ حمامه الصباحي ثم ارتدي ثيابه وعدل من هندامه واضعا الزيت المعتاد الذي يعيد إلى شعره البريق ثم ارتدى رابطة العنق وانطلق بعد أن أغلق باب شقته في هدوء وهو يتوجه إلى عمله قاصدا إنهاء بعض الأعمال التي كان مكلفا بها يوم أمس ولم يسعفه الوقت لإتمامها، لتمضي ساعة تلتها أخرى وإذا به يفاجئ بأذان الظهر، فتوجه إلى الصلاة وغادر بعدها مقر الشركة التي يعمل بها متجنبا المرور على مكتب رئيس مجلس الإدارة تجنبا لما يتوقع أن يلاقي من عتاب لعدم انتظامه في عمله في الفترة الأخيرة فلم يكن رئيس مجلس إدارة الشركة على علم بما شهدته تطورات الحالة الصحية لابن سامح.

وقد كان كل هذا يدور في عقل سامح الذي قرر أن يزور قريته للقاء أخيه كما وعد صديقه جمال عبد الرحمن، لكنه وجد في نفسه رغبة لم يكن يعلم لها سببا في أن يلتقي بالصديق جمال قبل أن يستأنف مسيرته إلى القرية حتى يطمئن على والدته التي استبد به الشوق إليها فما كان يحول بينها وبينه إلا الشدائد وضغوط العمل وما سيطر على قلبه من المخاوف في أعقاب تطورات الحالة الصحية لابنه والذي بدا في الفترة الأخيرة ينقطع عن الانتظام في دراسته نظرا لما يعانيه من مشاكل صحية فرضت عليه إلا يلهو مع أقرانه فيجري ويبذل مجهودا بدنيا كان يرتد على الفتي سلبا بضيق في التنفس واصفرارا بالوجه مما أصاب الأب بالحزن الذي أصبح يكسو قسمات وجهه بصوره شبه دائمة، كان كل هذا يدور بعقل سامح الذي أطلق من خلال سيارته صافرة تنبيه عندما اقترب من باب المزرعة التي أصبح صديقه المقرب يقضي بها معظم وقته بين العمال والآلات لسبب لم يفصح عنه له، لكن الرجل كان يتوقعه لأنه كان يشعر أن جمال صار توأم روحه الذي أعادته إليه الحياة بعد غياب، ومضت عدة دقائق قبل أن يغادر سامح سيارته ليصافح جمال الذي استقبله بوجه يشرق بابتسامة قبل أن يفاجئه قائلا:

– هل ذهبت إلى أخيك يا سامح؟ أو تحدثت معه فيما اتفقنا عليه بالأمس؟

فهز سامح رأسه نفيا مما أثار في نفس جمال دهشة فتنهد بعد أن ضم شفتيه قائلا:

– عجيب أمرك يا صديقي لكن على أية حال لا تخجل من شيء وسوف يدبرها الله مني أو من أي صديق أو من أخيك أو من فضل الله تبارك وتعالي
ثم أشار إليه قائلا:
– هل تشرب معي كوبا من الشاي؟
فضحك سامح وقد ارتسمت على وجهه دهشة قبل أن يقول مداعبا:
– ذكرتني بأمي
ثم انفجر ضاحكا وتلاقت أيدي الصديقين في الهواء فقال جمال:
– شافاها الله وعافاها هل ما زالت ..
وقبل أن يقول:
– تحيا وحيدة في بيت أبيك
قاطعه سامح قائلا:
– هل لديك إفطارا؟
– كنت أود سؤالك هل ما زالت أمك بالقرية في بيتها القديم
قالها جمال في إلحاح لا مبرر له ويرد سامح في ضجر مكتوم:
– نعم ما زالت، وأقوم بزيارتها كلما شاءت لي الأقدار
قبل أن يبحث في عصبية عن مقعد يلقي عليه بجسده المنهك وقد بدت على وجهه دلائل الإجهاد وانعقد حاجبا جمال الذي أطال النظر إلى صديقه ثم تنهد مبتسما قبل أن يستطرد قائلا:
– تشاجرت مع زوجتك أم ماذا؟

فقال سامح وهو يهز رأسه نفيا:
– بل تركتها نائمة ولم تسمح لي نفسي أن أزعجها من أجل لقيمات قلائل، فليس من عادتي أن أفطر في الصباح لكني عندما رأيتك اشتد بي الجوع حتى لطمت عصافير بطني.
فضحك جمال قائلا:
– طول عمرك فقري يا سامح أسأل الله ألا يحرمني منك وأن يديم أخوتنا وصداقتنا
ثم مط شفتيه وازدادت عيناه الضيقتان ضيقا قبل أن يهمس قائلا:
– ولكن دعني أقدم لك مفاجأة رائعة حتى أرسل أحد العمال يحضر لنا إفطارا فهل تصبر قليلا
فصرخ سامح مبتسما:
– أنا أصبر نعم
ثم استطرد قائلا:
– ولكن عصافير بطني التي صامت وقامت ثم سهرت حتى نامت واستيقظت تطلب طعاما كيف أُسكتها؟
فقال جمال ساخرا:
– أنت موظف أم شاعر؟
فضحك سامح قائلا:
– أنا جائع
وربت جمال على كتف صديقه ضاحكا:
– لا تقلق سوف نتناول الإفطار حالا ولكن استعد للمفاجأة

فرفع سامح حاجبيه دهشة وقال مبتسما:
– أي مفاجأة تلك؟ هل رشحت لي عروس؟
وابتسم جمال ثم قال ساخرا:
– الذي عجز عن ركوب دراجة لا يفكر في قيادة سفينة
ثم استطرد مبتسما:
– امشي إلى جوار الحائط تسلم من شرور النساء يا صديقي
ثم انفجر ضاحكا وهو يقترب منه هامسا في إذنيه:
– أعددت لك فيلم عربي رائع ولنجم أروع ومشاهدتك لهذا الفيلم سوف تسعدك جدا
فقال سامح متعجبا:
– فيلم رائع؟
ثم عقد ساعديه أمام صدره وقال ولم تغيب آثار الدهشة عن قسماته:
– ولمن يا تري من النجوم؟
فقال جمال مبتسما للنجم الكبير "نور الشريف" واتسعت عينا سامح دهشة ثم هز رأسه متعجبا وهو يقول مبتسما:
– ما هي حكاية هذا الرجل كنت وما زلت أعشقه، رئيسي المباشر وكثير جدا من زملائي يعشقون أعماله بكل أنواعها، وزوجتي وأبنائي أيضا يتابعون أعماله بشغف، فما السر وراء ذلك ولماذا كل هذا الاهتمام برجل حتى بعد رحيله؟
فقال جمال وعيناه تشع ببريق يوحي بالانبهار والإعجاب الشديد:

– عليك فقط مشاهدة فيما واحدا من أفلام هذا الرجل، وسوف تعلم لماذا يستحوذ على قلوب عشاقه، وسوف أحدثك عن بعض الأشياء التي عرفتها عنه ونحن نتناول إفطارنا يا صديقي

فتنهد سامح ومط شفتيه عجبا ثم أمسك شفته السفلي بأطراف أصابعه ولم ينطق بحرف واحد، لكن ثار بداخله سؤال حائر تردد صداه في أعماقه دون أن تتحرك شفتاه: "هل الاهتمام بالفن والأدب في هذا الزمان يمكن أن يغير في واقعنا شيئا؟"

ثم همس قائلا دون أن يعي أن صديقه ينصت إليه:

– ربما

وتمتم هامسا:

– ربنا يكتب لي مخرج من كل الأزمات على يديك يا جمال

فقال جمال وهو يربت على كتف سامح:

– لا تقلق يا صديقي

ثم رفع وجهه إلى السماء وأشار بأصبعه قائلا:

– كل أزمة ولها عند ملك الملوك مليون حل فاسأل الله ولن يخذلك أبدا

فتنهد سامح قائلا في ارتياح بالغ:

– ونعم بالله

ثم استطرد مبتسما:

– وها هو الحاج شعبان قد أتي ومعه طعام الإفطار فهيا إلى فيلم الأسبوع، ثم قبض على معصم صديقه ليحول بينه وبين الشاشة قبل بداية مشاهدة الفيلم قائلا:

– اخبرني أولا يا جمال ما هو اسم هذا الفيلم الذي جذب انتباهك بهذا الشكل لهذا الفنان
فقال جمال وهو يبتسم في سخرية:
– جهلك ليس ذنبي عموما هو فيلم يحمل اسم "كتيبة الإعدام" لكنه تحفة فنية، توجد به كمية رهيبة من عناصر الإبهار واللغة السينمائية التي تأخذك إلى عالم ساحر
فانفجر سامح ضاحكا قبل أن يهتف به:
– والله ما فهمت حرف من حديثك لكن دعنا نشاهد الفيلم أولا وبعدها سوف أقول لك ما خرجت به من المشاهدة لكن المهم أولا أن نعد أكواب الشاي قبل أن نفطر
فقال جمال وقد شعر بأنه لم يسمع ما قاله سامح جيدا:
– نعم؟
ثم قال فجأة:
– ماذا تقول يا صديقي؟
– هل تريد الشاي مع الإفطار في وقت واحد؟
فقال سامح:
– نعم تعودت أن أمضغ الطعام وأنا أحتسي كوبا من الشاي وبالتحديد عندما أتناول الإفطار ونظر إليه جمال مبتسما وقال فجأة:
– عجيب في كل أحوالك وتصرفاتك يا صديقي، أنا لا أعلم كيف تحيا بهذه الطريقة وكيف يحتمل الحياة معك بشرا طبيعيون مثل الذين نراهم في حياتنا العادية

فقال سامح مستنكرا ولم تخلوا عباراته من الدهشة:
– كيف أحيا بهذه الطريقة؟ لماذا؟ هل تراني أسير على قدمين أم أرفرف بأجنحتي؟
وانفجر جمال ضاحكا ثم قال وهو يجهز الإفطار مفترشا الأرض:
– لا تضيع وقتي معا وتعالي لنشاهد الفيلم
فقال سامح مازحا:
– هل سنفطر على الأرض يا إعلامي يا كبير؟
فقال جمال وقد انعقد حاجباه مستنكرا وهو لا يزال مبتسما:
– وماذا في ذلك يا ابن حواء وآدم؟
ثم استطرد قائلا بعد أن تنهد بعمق:
– هل نتكبر نحن على الأرض التي منها خلقنا وإليها نعود؟
ثم ابتسم قائلا:
– قال أجدادنا قديما "اجعل البساط أحمدي" في إشارة إلى أخلاق سيدنا رسول الله ﷺ
ثم جذب جمال صديقه من يده فأجلسه رغما عنه قائلا:
– انسي أنك موظف كبير وأني كنت مقدم برامج واقتدي بسيدنا محمد رسول الله ﷺ
فقال سامح وقد مد يده وبدأ يتناول الطعام:
– صلى الله عليه وسلم
وكانت قد بدأت أحداث الفيلم فخيم الصمت على المكان، لم يكن يقطع هذا الصمت إلا أصوات الملاعق وصوت الماء

أثناء احتساء سامح لجرعات متتالية عقب كل عدة لقيمات قبل أن يمزق صوت سامح فجأة ستائر الصمت التي أسدلت على المكان وقد اندمج جمال بكيانه مع الشاشة عندما قال:

– توظيف وتسكين الأدوار والملابس والديكورات والإنتاج ومواقع التصوير والفكرة وأداء الممثلين تشعر كما لو كان من صنع هذا العمل يخطط لكل صغيرة وكبيرة أثناء تنفيذه ويتصرف بطريقة مخطط لها بحساب دقيق وصارم

فخرج جمال عن شعوره وهو يكظم غيظه محتفظا بابتسامته:

– اهدأ قليلا يا عم الناقد ودعني أتابع الفيلم ولنتحدث عما شئت بعد نهايته فلم أستطيع متابعته للنهاية منذ شهر كامل وأريد الآن متابعته فهل تسمح لي حضرتك بذلك؟

فقال سامح مبتسما:

– لماذا لم تتاح لك الفرصة للمتابعة حتى الآن؟

فقال جمال متعجبا وهو يهز رأسه:

– في كل مره يحدث أمرا ما، حادث على الطريق أو مقاطعة من أحد العمال أو زيارة من صديق، أصبحت أحلم بهذا الفيلم يا سامح فإذا شئت فلك مني ما تريد، لكن أرجوك وأقبل رأسك دعني أتابعه إلى النهاية وبعد ذلك سوف تخرج أنت من هذا الفيلم بما قد يفيدك في حياتك، فهذا الرجل لم يصنع نجوميته من فراغ لأن أعماله دائما هادفة وتحمل رسالة تؤكد على معنى أخلاقي معين وترسخه في نفوس الناس دون إكراه أو إلحاح أو خطب منبرية.

وساد صمت طويل لم يقطعه صوت قرابة نصف ساعة قبل أن يفاجأ سامح باتصال هاتفي من أخيه عادل فنظر مبتسما إلى جمال الذي استشاط غضبا وقال في عجالة وهو يضغط على شفتيه بأسنانه رغم ابتسامته التي لم تفارق وجهه:

– ألم أقل لك أن سوء الحظ يلازمني كلما أردت مشاهدة هذا الفيلم؟

ثم تنهد بعمق قائلا:

– انهض واختفي من أمامي لأني والله العظيم لن أشاهد هذا الفيلم بصحبة أحد بعد الآن

فضحك سامح حتى توردت وجنتيه ودمعت عينيه وخرج وهو يشير بيده مودعا صديقه قائلا:

– أراك على خيرا وشكرا لك على كرم الضيافة ثم نظر إلى وجه جمال الذي يتأفف غيظا وأشار بيده إليه قائلا:

– تمنياتي بمشاهدة ممتعة للنجم الكبير نور الشريف

ثم استقر خلف عجلة القيادة وأدار محرك سيارته وهو يقول مبتسما:

– سلام يا عالمي، أراك على الشاشة قريبا إن كان في العمر بقية

فودعه جمال مبتسما وهو يقول ساخرا:

– وإن لم يكن نلتقي في الآخرة المهم لا تنسي أن تتابعني بالجديد من أخبارك

ثم أدار ظهره وهو يهمس قائلا:

– في رعاية الله يا صديقي

وأغلق باب الحجرة خلفه ثم القي بجسده على أريكة خشبية في نهاية الحجرة ووضع ساعده فوق وسادة صغيرة وعاد إلى متابعة الفيلم الذي يريد أن يراه كاملا مرة واحدة على الأقل لكن الأقدار تأبي أن تمنحه الفرصة حتى الآن.

الفصل الرابع

عندما وصل سامح في رحلته إلى قريته إلى مدخل القرية، كان قد بدأ يشعر بالجوع الذي خرست معه أجراس الذاكرة التي يدوي صوتها في عقله مذكرا إياه بزوجته الراحلة وابنه المريض وما كان من عقاب الشيخ في كتاب القرية الملاصق للمسجد الذي يقع على مقربة من بيت أبيه الذي تقيم فيه والدته وأخته المطلقة بعد أن رفضت الأم مغادرة هذا البيت حتى تشيع إلى مثواها الأخير، وتعذر على سامح وأخيه عادل حتى إعادة بناء هذا البيت حتى لا تفقد أمه التي لم تعد تري الحياة إلا بعيون ابنتها شيئا من ذكرياتها بين جدرانه فغاص سامح بعينيه وقلبه بين المارة قاطعا الطريق المؤدي إلى بيته سيرا على الأقدام بعد أن شق طريقه بين الجموع المحتشدة في يوم مميز يقام فيه سوقا كبيرا لكل الأشياء بقريته من غلال وماشية وغيرها، لكنه أخيرا بعد سباحة غير مأمونة العواقب بغير قارب ولا سفينة في بحار الذكريات بلغ باب البيت ليطمئن على أمه فطرق الباب لتفتح له الأخت التي انفصلت عن زوجها منذ فترة طويلة وإذا به يفاجئها بقوله:

– كيف حالك يا مريم وكيف حال الدنيا وأخبار ست الكل والدتك؟

ثم صافحها بحرارة وتجاوزها عند الباب ليصيح مناديا:

– أمي! أين أنت يا نور الدنيا وزينتها؟
فجاء إليه صوت أمه من بعيد معاتبا في نبرة لا تخلو من المرح:
– هكذا أنت دائما لا ننال منك إلا حلو اللسان ولكن الأفعال تفضح تمثيلك الباهت
ولم تمض إلا ثوان حتى كانت أمه بين يديه متوكئة على عصاها في إشارة منها إلى عدم الاحتياج لأحد فقال سامح مبتسما:
– لو احترفت فن التمثيل على أهل الأرض جميعا فإني بين يديك على طبيعتي يا أمي، فأنت الحقيقة الوحيدة في حياتي التي أمنحها قلبي بكل صدق وما منعني عنك والله أمر شديد الصعوبة يعز على نفسي أن أبوح به أمامك كي لا تحزني
وساد الصمت لحظة فانقبض قلب الأم التي احتوت وجه ابنها بكفيها وهي تقول في نبرات مرتعشة:
– ماذا بك يا ولدي أخبرني بالجديد عن أبنائك وعن زوجتك، هل أصاب أحدهم مكروه أو مسه الضر لا قدر الله؟
فقال سامح في كلمات تقطر حزنا بعد أن تنهد في أسي:
– لا تقلقي يا أمي إنها أزمة طارئة وسوف تزول عاجلا بمشيئة الله تعالي
واحتوت الأم وجه ابنها بكفيها بعد أن رأت ببصيرتها ما يدور في عقله من مخاوف تجاه حالة ابنه الصحية وما يئن به قلبه المتوجع على فلذة كبده الذي يصارع من أجل أن يلتقط فقط أنفاسا تهبه الفرصة ليحيا في ظل تدهور حالته الصحية وعجز أبيه عن توفير علاج ينقذ حياة الفتي، لكن سامح لم يشأ أن

يحمل أمه من الهموم ما لا يحتمله قلبها بعد أن أصبحت أسيرة الظلام بفقد بصرها، فكان إشفاقه عليها سببا في كتمان أوجاعه التي أوحت بها أنفاسه الحارقة دون حديث، لكنه احتمى بغير قليل من الثبات الانفعالي، وأفلت من حصار قلب الأم الباكي لحاله رغم ثبات نظراتها إلى وجهه وعدم قدرتها على فعل ما يريح هذا القلب الذي يتوجع ألما ورعبا، وقضي سامح سويعات حتى انتصف النهار ثم توجه إلى لقاء أخيه الذي شغلته أعمال الحقل عن زيارة والدته في عصر ذلك اليوم كما كان يفعل كل عدة أيام للاطمئنان عليها، وعندما وصل سامح إلى أخيه وجده في الحقل وقد شمر ثيابه حتى ركبتيه وكان يعمل في الحقل ممسكا بفأسه والعرق ينهمر من جبينه كسيل من السيول حين تفيض الأنهار حتى تتجاوز المياه شواطئها، وعندما سمع عادل وقع خطى أخيه وندائه من بعيد ألقى بفأسه وجفف عرقه بطرف ثوبه لتبدوا بشرته البيضاء وعيناه العميقتان كأنما كان يغوص تحت أمواج عاتية لم تلبث أن انحسرت عن رأسه التي أزالت عنها الأيام خصلات الشعر الكثيف في منتصف الشباب وانعكست أشعة الشمس على صلعته التي لاح منها بريق يبعث على المرح كما ينبت بذور السخرية في النفوس التي أعياها طول العهد بالأحزان فصارت تبحث عن الفكاهة بحث الجائع عن الطعام فكتم سامح الضحك الذي كاد ينفجر بداخله خجلا من أخيه لكنه تبسم وهو يتمتم في هدوء:

– لا تجهد نفسك في هذا اللهيب الحارق وانتظر حتى تغرب

الشمس، أخشي عليك أن تصاب لا قدر الله بنوبة إعياء شديدة فترفق بنفسك يا شقيقي

فعانقه أخيه وتبادلا القبلات قبل أن يبادره عادل قائلا:

– لا عليك من هذا فقد اعتدنا المشقة والتعب، وكما قال أحد الناس قديما، من أراد أن تكون كلمته من رأسه فلتكن لقمته من فأسه

فقاطعه سامح ضاحكا:

– دعك من الفأس والمحراث وأخبرني كيف حال الدنيا معك وحال أبنائك خالد وثروت

ثم تنهد سامح قبل أن يستطرد:

– هل عاد أحدهم من سفره أم لا يزال كلاهما خارج مصر حتى الآن؟

ونضبت البشاشة من وجه عادل الذي تحركت في عقله فراسة غير معهودة كأنما قرأ في عيون أخيه أنه آتاه يطلب منه مالا فقال في نبرات تقطر حزنا دون مبرر للحديث:

– لقد خسر خالد في صفقة تجارية ما يتجاوز نصف مليون جنيه مصري بعد أن تعرض لعملية نصب مدروسة من أحد التجار بمدينة دمياط، بينما اشتري ثروت شقة وضع فيها كل ما جناه من رحلته الأخيرة إلى مملكة البحرين بعد سنوات طويلة من العمل والجهد وعندما تزوج استنفذ آخر ما كان لديه من مال وعاد يعمل عند الناس أجيرا كما كان قبل سفره إلى خارج مصر عندما عمل لفترة طويلة بائع في أحد متاجر الملابس

الجاهزة بالقاهرة رغم أنه خريج جامعي، لكنه تخلي عن مؤهله هذا وحارب من أجل طموحه وكان على حق لأني لم يكن بإمكاني مساعدته في شراء شقة وزواج في وقت واحد، فقد تقدم بي العمر ولم يعد لي بعد المعاش المبكر سوي هذه الأرض التي لم تعد تحقق عائدا يكفي ما نحتاج إليه من نفقات تزيد كل يوم بسبب موجات الغلاء المتزايدة يوما بعد آخر وبعد أن أصبحت تكاليف خدمة الأرض ورعايتها مضاعفة أضعافا
ثم تنهد الرجل وواصل حديثه الغاضب:
– علاوة على أننا الآن نشتري مياه الري بعد أن أصبحت حصتنا منها لا تكفي، وارتفعت أسعار البذور والأسمدة وأجور العمال والآلات في مواسم الحصاد والزراعة وإعداد الأرض للزراعة في كل موسم
ثم أحني عادل رأسه إلى الأرض متنهدا في مرارة قبل أن يهمس في نبرات تبدو أقرب إلى النحيب منها إلى الحديث:
– الحمد لله أن ترك لنا أبونا قطعة أرض تسترنا وإلا ما استطعنا مواجهة هذا الوحش الذي يسمونه عند البعض غلاء فاحش بينما يراه عامة الناس سرطان ينهش أجساد وحياة الفقراء فيبيد الأحلام والأجسام ويحرم الناس من راحة المنام ولذة الطعام
فهز سامح رأسه متأثرا بما يقول أخيه حتى لا يثير الحديث في نفسه غبار الكراهية تجاه شقيقه ثم أحاط منكبي أخيه بذراعه وسار به مبتعدا إلى خارج الحقل قائلا:
– لا عليك يا أخي فمن يرزق الناس في الرخاء يتكفل بهم في

وكانت كلمات عادل قد اخترقت أذني سامح كأنها ألسنة من اللهب حملتها رياح عاصفة إلى مدينة من مدن الأساطير أحاطت بأسوارها تلال شاهقات من القش الجاف فاشتعلت فيها النيران وعلت سحب الدخان فمن حاول الفرار من المدينة اختنق، ومن بقي على أرضها احترق، ومن حاول إطفاء نارها هلك، واكتفي سامح بأن نظر إلى أخيه معاتبا دون حديث وكأنما تصرخ عيناه في مواجهة أخيه:

– هل جئت إليك مقترضا لينفجر في وجهي بركان أوجاعك؟ أم انك رأيت بعيني رأسك أن الأرض قد ضاقت على نفسي بما رحبت فجئتك طارقا بابك من أجل إنقاذ حياة ولدي؟

ثم صرخ به معاتبا دون حديث

– وهل تظنني مجرما حين أطلب منك مالا؟ ألسنا إخوة وبيننا رابطة الدم وجئنا من صلب رجل واحد ورحم امرأة واحدة؟

لكن عادل لم يكن يلقي إلى نظرات سامح المعاتبة له بالا، وانهي عمله بالحقل ثم ارتدي ثيابه مصطحبا أخاه إلى بيت أمه ليطمئنا على صحتها وأحوالها وليقضيا بصحبتها قيلولة الظهيرة في هذا اليوم حتى تتمكن زوجة ابن عادل من إعداد الطعام لوالد زوجها وشقيقه الذي حل ضيفا بالقرية منذ ساعات، وفي الطريق إلى بيت الأم استرجع سامح ذكريات الطفولة وما كان من لهو وعبث في شوارع القرية الترابية لكنه لم يهنأ بتلك الذكريات فما ترك له أحدا من المارة فرصة ليسترجع ماضية كاملا، فلا

يخطو خطوتين إلا ويصافحه أحد أو يحتضنه صديق أو يرتمي هو بنفسه في أحضان قريب له، ويتشتت عقل الرجل الذي تفرض عليه هذه المودة التي تهفو نفسه إليها سؤال رجل عن أحوال أبنائه وأخبارهم ثم يسأل آخر عن تعليم أبنائه، ويستفسر من ثالث عن زواج أبنائه ومن تزوج ومن بقي أعزب ومن سافر ومن بقي في البلدة أو على أرض مصر عموما وأين يعمل وكيف سارت الحياة بهن ولا يخلو الطريق أثناء عودة الشقيقان إلى بيت أمهما من رد للسلام أو رفع اليد بالتحية لمن يهتف مرحبا به من بعيد، ويموج الطريق بالأطفال بين ذاهب وآيب فيبتسم في وجه هذا ويداعب هذا وينحني مقبلا طفلا يتيما لم يتجاوز أعوامه الأربعة لأن أباه كان صديقا له أو لأنه يبتغي الإحسان إلى ذلك المسكين ولو بابتسامة تاركا الدهشة تطرح أسئلة لا تنتهي في عقل أخيه والحيرة تعصف بقلب عادل وترتسم على وجهه ابتسامة تتعجب من نقاء قلب هذا الرجل الذي تجاوز الخامسة والأربعين ولا يزال يحيا بقلب طفل.

وتمر دقائق تتجاوز نصف ساعة قبل أن يدخلا معا إلى بيت أمهما فيصنع عادل لأخيه مشروبا قبل أن يهمس إلى أمه مازحا:

– أتيت لك بفاكهة العائلة يا ست الحبايب إنه الفتي المشاغب سامح

فتمازحه الأم بقولها:

– سبقك بزيارتي قبل أن يراك فلا يستطيع المرور دون تأشيرة دخول وختم على أوراق اعتماده سفيرا بمملكة قلبي –تلك

المملكة- س التي لا يملك الحق في الترشح للجلوس على عرشها سواكم يا ولدي
وارتمي عادل في أحضان الأم ملتمسا دفء قلبها، ثم لم يلبث أخاه أن فعل مثله فأحاطت الأم ولديها بذراعيها كعصفورة تحمي وليديها بجناحين هزيلين من رياح عاتية، ومضت دقائق ساد فيها صمت طويل ولهج قلب الأم بالدعاء لأبنائها لكنها لم تكن تدري بما يدور بعقل سامح الذي كان يمهد لاستضافتها في شقته بالقاهرة إذا ما استطاع أن يدبر ما يلزم لإتمام علاج ابنه من أموال ولذلك لم يستطيع أن يتحدث في مثل هذا الأمر في وجود أخيه الذي اصطحبه إلى بيته وعندما جمعتهما مائدة الطعام تظاهر سامح بأنه يأكل بنهم كعادته لكنه كان يرمق أخيه بنظرات حارقة دون أن تطلق عينيه سهما واحدا من سهامها النارية حين هتف من أعماقه بلا صوت رغم جمود ملامح الوجه التي تخفي خلف جمودها بركانا يقذف بالحمم
- هل تتخلي عني بعد أن جئتك طالبا العون ممن أري فيه بعد الله سندي؟
فنظر إليه عادل مبتسما دون أن ينطق وقال ردا على سؤال أخيه بغير حديث:
- لو أن بيدي أن أعطيك نصف مالي ما ترددت ولكنك تخليت عن أرضك من أجل تحيا كما تريد، فلا تجبرني أن أفعل من أجلك إلا ما أستطيع أن أفعله، فلن تجد مني إلا ما أستطيع الصبر على إقراضك إياه لفترة من الزمن وليس إلى الأبد، فلم

يعد يبقي لي سوي ما يحقق لي الستر في هذا الزمان فقط بعد أن تغيرت الأحوال وأصبح ما يتحقق من عائد من الأرض يساوي بالكاد ما يتم إنفاقه على رعايتها ورعاية بيتي وبنتي قبل زواجها الذي اقترب موعده

وعاد سامح يسأل دون حديث:

– وهل قال لك أحد تتزوج من تجردك من أكثر من نصف مالك بخديعة وقعت في شراكها دون أن تحسب لغدرها بك حسابا بعد أن أوهمتك بأنها تملك الكثير؟ وعندما رأت منك طمعا فيما لديها تركتك ورحلت بعد أن حصلت بطرق ملتوية على كل شيء وافقت أنت على أن تمنحها إياه بإرادتك لأنك كنت تريد جمالها وقوامها لا أكثر ولم يكن لدينها وأخلاقها في حساباتك مكان؟ وكان من نتائج تصرفك المشين هذا انفضاض أبنائك الكبار من حولك ورحيلهم إلى بلاد بعيدة فاكتفي أحدهم بأن ينطوي على ذاته ويحيا لزوجته فقط وكأنه ليس من صلبك وليس لك عليه بر الأب وليس له عليك حق الطاعة.

ثم تنهد سامح فجأة قبل أن يصرخ من أعماقه بلا صوت:

– فشلت في إدارتك لبيتك بسوء نواياك وأطماعك، لكن لا أجد من يستحق أن أسكب ماء وجهي بين يديه سواك فلا يتحول الدم إلى ماء أبدا ولا ينتزع الظفر من اللحم إلا قهرا وتعذيبا.

ثم مط سامح شفتيه وهو يتنهد وقد بدت على وجهه علامات الأسى والضيق قبل أن يستطرد وهو لا يزال سابحا في خيالاته

وأفكاره التي لم تتحرك بها شفتيه عندما قال في مرارة:
– لقد خسرت ولدك الأول لأنك حاولت أن تفرض عليه حياتك وفكرك أنت، وظل الثاني يحارب حتى لا تعيده الدنيا إليك فخسر في صفقة مشبوهة نصف ما جنى من ثمار في غربته وعذابه بعيدا عن الوطن والأهل
وفجأة انفجر عادل ضاحكا فعاد سامح إلى وعيه وقد تصبب جبينه عرقا من أثر المفاجأة فهتف صارخا:
– لقد أفزعتني يا رجل، اخبرني ماذا أضحكك فجأة؟
فقال عادل:
– رأيتك تعوم في بحر خيالك خشيت عليك أن تموت غريقا
ولم يستمر الحديث الصامت طويلا عندما اقترب عادل من أخيه ومال إليه هامسا وهو يربت على كتفيه بعد أن رمقه بنظرة ملؤها المودة وكأنما يريد أن يسترضيه حين قال فجأة:
– أبلغني كم تريد من المال لإتمام جراحة محمود؟
فاتسعت عينا سامح دهشة عن آخرهما وهتف مندهشا:
– كيف عرفت بمرض ابني؟
تنهد عادل في عمق وهو يردف في دهشة واستنكار:
– كيف عرفت؟ هل تظن إني في غيبوبة؟ أم إني كنت معارا إلى ماليزيا؟ ألا تخجل من نفسك حين تسال عم سؤالا مثل هذا يخص ابن شقيقه؟
ونهض سامح فجأة وقد استبد به الخجل فقال:
– التمس لي عذرا فما كنت أريد أن أضيف إلى متاعبك

وهمومك جديدا وأعلم أنه لا يخلو أحد في أيامنا من الهموم والمتاعب ولكن الموقف الذي أتصدي له الآن لم يدع لي بابا إلا طرقته ولا سبيلا إلا سلكته

فقال عادل مبتسما:

– لا عليك فابنك هو ابني أيضا، كم تريد حتى أتصرف إذا كنت سوف أبيع بعضا من رؤوس ماشيتي، أو قطعة من أرضي ربما يستغرق الأمر أياما

فقال سامح:

– لا أريد سوي تكاليف الجراحة، ومعي الآن بعض من المال مما كنت أحتفظ به لقسوة الأيام وابتلاءات القدر، وهناك مصدر آخر سوف أدبر من خلاله بعضا من المال وسوف أبلغك به حين أحصل على ما أريد

وعند هذه الجملة هز عادل رأسه إيماء بالفهم ثم نظر إلى الأرض وتنهد بعمق وهو يمسك شفته السفلي بأنامله قبل أن يهمس قائلا:

– فليدبرها رافع السماء بلا عمد

وعندها تهلل وجه سامح وأشرقت الفرحة في عينيه فنظر إلى يمينه ثم التقط معطفه وودع أخاه منصرفا وقد انطلق عازما على تنفيذ الخطوة التالية للحصول على المال فاتجه بعد انطلاقه بسيارته قاطعا الإسفلت الممتد بين قريته ومنطقة مدينة نصر بالقاهرة بأقصى سرعة يمكن أن تستغرقها تلك الرحلة وقلبه ينتفض بمشاعر مختلطة امتزج فيها الخوف بالرجاء بالفرحة

بالرغبة في البكاء الحار، لكنه رغم كل شيء نحي كل هذا جانبا وألقي سمعه إلى أغنية كان يعشقها في مرحلة الشباب عندما كان لا يزال بالجامعة، وعندما بدأت نغمات الأغنية تتهادي إلى أذنيه في عذوبة سكنت كل الأصوات إلا صوت فايزة أحمد التي كانت قد بدأت أغنيتها الرائعة "صعبان علينا منكم"، وكانت تلك الأغنية هي التي ترافقه في وحدته عند شاطئ البحر قبل أن يتزوج بزوجته الراحلة رانيا التي تركت له قبل رحيلها زهرتان يملأ عطرهما حياته بهجة وسرورا يمتزج بالألم الذي هدأ صوته قليلا عندما وعده أخاه بتدبير المال اللازم لعلاج ابنه ثم أقدم على بيع سيارته الفاخرة ليشتري أخرى بسيطة محدودة الكماليات مستفيدا بفارق السعر حتى لا يضطر مجددا إلى الاقتراض من أحد بعد أخيه فلم يكن يعلم ما تخفيه له الأقدار حتى وجد نفسه أمام أحد معارض السيارات الذي كان قد اتفق مع مالكه على أن يزوره منذ عدة أيام وجاءت تلك اللحظة التي استبدل فيها سيارته الضخمة طراز "جيب شيروكي" ذات الإمكانيات الرائعة بأخرى مستعمله وبحالة جيدة من طراز "سوزوكي سويفت" يابانية الصنع لكنها قديمة بعض الشيء وتخلو من أية مظاهر للرفاهية، فلابد عندما تفرض الأيام قسوتها أن يصبر على قسوتها كل ذي عقل، هكذا كان سامح يواسي نفسه عندما أقدم على تلك الخطوة بهذه الكلمات، وعندما عاد إلى بيته كان الليل قد تأخر ولكن زوجته لم تكن قد نامت، فلم تكن تعلم ما يدور بعقله حتى سمعت صخبا وضجيجا فهرعت

إلى شرفتها وقد تنبهت إلى الصخب الذي ما كان إلا إعلان عن نجاح تلك الخطوة التي قبلت بها أمال على مضض ولم تستطع أن تعترض عليه لأنها تعلم أن الحديث معه في أمر قد أقدم على فعله لن يجدي نفعا، فابتلعت غضبها وكظمت غيظا جعلها تبذل جهدا حتى لا ينفجر بركان غضبها في وجه زوجها، ذلك الغضب الذي صنعه القلق والملل والفراغ ولم تكن تعلم أنه يعد لها مفاجأة سارة ما كانت تتوقعها في مثل تلك الظروف التي تحيط به، فلم تكن قد مضت سوي عدة دقائق وقبل أن تمطره بسيل عارم من الأسئلة بلا إجابات شافية كما اعتادت من زوجها في الآونة الأخيرة قال لها سامح فجأة:

– ارتدي افخر ثيابك وأعدي نفسك للخروج لقضاء سهرة ممتعة بعيدا عن هذا الإطار القاتل الذي اعتدنا عليه منذ فترة ورفعت أمال حاجبيها في دهشة وهي تقول في مرح:

هذه السهرة رشوة لتتجنب الحديث والجدال بسبب تصرفك الأخير أليس كذلك؟

فقال لها وقد أطال النظر إلى عينيها فشعرت بأن قشعريرة تسري بجسدها قبل أن يهمس إليها بكل رقة:

– لا والله يا رفيقة مشواري، ولكنها تعبيرا عن شكري لك على ما تحتملين من تقلبات حياتي منذ أن مرض ابني وحتى الآن

فما كان من الزوجة إلا أن تنهدت في عمق وقد ران على المكان كله صمت طويل لم يقطعه سوي صوت خطواتها التي أسرعت إلى ثيابها فارتدت أكثرها روعة وجاذبية وأعدت نفسها لقضاء

السهرة وقد خدمت الأقدار سامح لتصفوا له الأجواء بعد أن قضي فترة طويلة من الزمن كان فيها يلهث خلف السعادة فلا يناله منها إلا قشورا، لكن الأقدار أخيرا تبتسم وتستحي الدنيا من صلابة هذا الرجل وصبره على قسوة الظروف واحتماله لكل تقلبات الزمن بصدر رحب، وانطلق الزوجين معا بعد أن استضاف فتحي شقيق أمال أبناء سامح في يوم احتفاله بعيد ميلاد ابنه الوحيد باسم ليقضيا مع الفتي الصغير ليلته بعد أن جمعت بين الأطفال صداقة بريئة وقضي سامح وزوجته ليلتهما في سعادة بالغة في مكان راقي بوسط العاصمة ثم اصطحبها زوجها لشراء هدية ذهبية قيمة وعاد الزوجان إلى الشقة لتمضي بهما الأقدار إلى ليلة أعادت إليهما ذكريات جميلة .

ومضت عدة ساعات حتى نهض سامح متكاسلا عن أي شيء فقرر أن يقضي ما تبقي من يومه حتى عصر الجمعة بالمنزل، ولم يكن أمامه من وسيلة يقضي بها وقتا ممتعا بالمنزل إلا مشاهدة فيلم وجد في نفسه رغبة ملحة لمشاهدته كاملا هو فيلم "البريء" للنجم أحمد زكي، والذي شاهده هذه المرة بكل دقة لمحاولة تفسير ما هو سبب النجومية التي يتمتع بها هذا الرجل ولماذا يحبه الناس بهذه الطريقة بعد كل هذه السنوات، وقضي قرابة الساعتين أمام شاشة التلفاز حتى انتهي من مشاهدة الفيلم، ثم نهض بعده عازما على أن يكتب تحليلا نقديا عن جوانب الإبداع في هذا العمل الفني كما كان يفعل في فترة دراسته بالجامعة مع أي عمل فني ينال إعجابه، وعندما ألقى

بجسده خلف مكتبة أمسك بأوراقه وقلمه وكتب مقالا نقديا يحمل عنوان "روائع السينما المصرية وقضايا الفن الشائكة" وقد تأثر سامح كثيرا بما احتوي عليه فيلم البريء من مشاهد رائعة تمثل الطغيان لدى أصحاب السلطة في زمن مضى قبل أن يشهد الواقع المصري تحولات جذرية، وقد برهنت الأيام على مدي تأثر سامح بتلك القيمة التي توهجت جذوتها في نفسه بعد أن كادت تخمدها قسوة الأيام عندما واجه ظروف عصيبة في عمله فصار يتمسك بقيمة الشجاعة كلما واجه الظلم في أي مكان سواء وقع عليه أو على غيره، ولم يكن قد مضي على مشاهدته لهذا العمل الفني سوي عدة أيام حتى فرضت الأيام عليه أن يتخذ موقفا شجاعا على الرغم من أن سامح كان يستتر خلف جدار هش من القيم العتيقة البالية التي تؤصل للجبن والخوف في نفوس البعض على خلفية إحدى المقولات الشهيرة لزميل في عالم التجارة كان قد حذر الزملاء من الاعتراض على أية قرارات تصدر فيما يخص عملهم عندما وقف الزميل يهتف بينهم بأعلى صوته قائلا:

– اجعلوا عملكم أساس حياتكم يا سادة، فلا تعرضوه للخطر من أجل مبادئكم لأن لديكم أولاد ومسئولية مادية واجتماعية ولتكن تلك الحكمة أساس عملكم "أن الولد مجبنة مبخلة"، فقاطع سامح رجل الأعمال العجوز أثناء حديثه حين قال في نبرات غاضبة مستنكرا حديث الرجل

– ماذا تعني بهذا القول يا سيدي؟ هل تقصد أن نبيع ضمائرنا

لمن يغدق علينا الأموال؟
ونظر الرجل العجوز إلى الفتي الوسيم سامح في ذلك الوقت وقبل سنوات مضت نظرة تجمع بين الدهشة والاستنكار ثم قال في عبارات موجزة قصد منها أن يمتص غضب سامح:
– لا يا صديقي، ولكني أقصد ألا يدفعك الحماس والاندفاع خلف الأفكار الجريئة المفتقدة إلى العقلانية كما يفعل الشباب في ريعان الصبا فتدفع ثمنا غاليا لاندفاعك، فأخاف أن يدفعك حماسك إلى الانسياق وراء أفكار وتصرفات وقرارات ربما تعرض عملك وحياتك وحريتك أحيانا للخطر إذا تعارضت أفكارك مع الصالح العام الذي يسعى إليه من هو أكثر منك خبرة بواقع الحياة ومن علمته قسوة الأيام الكثير
فنظر سامح إلى الصديق العجوز في استياء لكنه كظم غيظه فلم يتفوه بكلمة واحدة ثم مص شفتيه متحسرا على ما أصبح الناس عليه، وفي خضم هذا البحر المائج من النقاشات والمشادات الكلامية بين جيلين مختلفين، اتخذ سامح من الصمت ملاذا آمنا من هذا التراشق الدائر بين فريقين يمثل كلا منهما منهج حياة ورؤية مختلفة لواقع الأمور التي تفرض على الناس أحيانا أن تنحي المبادئ جانبا إذا ما تعارضت المبادئ مع لقمة العيش، لأن الأفواه الجائعة والبطون الخاوية لن تشبعها الشعارات والكلمات الرنانة، ولا تعيد إليها الأمان تلك الخطب الجوفاء التي تنشد المدينة الفاضلة بينما لا يجد الحفاة ما يقي أقدامهم لهيب الصيف وزمهرير الشتاء، وعندما هدأت عاصفة النقاش

مسح سامح وجهه بكلتا يديه، وعدل من هندامه، واستجمع شتات نفسه، ثم دس أوراقه في حقيبته السوداء ورفع يده بالتحية مودعا الجميع إلى بيته بعد أن حصل على أجازة للمرة الرابعة خلال الشهور الثلاثة الأخيرة، لكنها في آخر مرة كانت أجازة لمدة أسبوع بدون راتب أو حافز أداء، وكان الرجل على أتم استعداد للتخلي عن عمله إذا ما وجد من رئيسه في العمل اعتراضا على تلك الإجازة، لكن الرجل لم يمانع ربما لأنه كان يعد مفاجأة لسامح كانت تنتظره عندما يطمئن على سلامة ابنه الذي كان يستعد لإجراء جراحة عاجلة بالقلب اضطر معها سامح للاستدانة من أخيه ولأن يستبدل سيارته الفارهة والتي كانت توفر له منتهي الرفاهية أثناء القيادة بسيارة أخرى كانت تحتاج إلى الصيانة كما يحتاج الظامئ إلى الماء البارد أثناء العمل عندما يلهب وهج الشمس جبينه فيتصبب عرقا، لكن الرجل على أية حال قبل بالتضحية بكل شيء من أجل حياة ابنه التي كانت مهددة بالخطر، وعندما غادر مقر عمله لم يتجه عائدا إلى بيته مباشرة ولكنه أجرى اتصالا هاتفيا بمدير العلاقات العامة وأحد المسئولين بالمستشفى الكبير بالسادس من أكتوبر والمقرر إجراء الجراحة لابنه فيها خلال أيام فابلغه الرجل بأن السيدة أمال زوجته قد سلمته التحاليل الطبية الخاصة بابنه فور استلامها من معمل التحاليل ليسلمها الرجل بدوره إلى الطبيب المختص ولم يستطع سامح أن يصبر حتى المساء لمقابلة الطبيب فقضى بعض الوقت عند صديق مقرب لكنه لم يستطع

أن يتحدث معه بشأن ابنه وما يواجه من متاعب صحية فلم يكن يريد أن يثقل على الناس بأنه يشاركه حتى أقرب الأصدقاء أوجاعه، فقد تردد في أعماقه صوتا كان يتذكره منذ الصبا عندما وقف أحد خطباء المساجد يخطب في الناس قائلا:

– يا ابن آدم إذا أردت أن تكون أكرم الناس فلا تشكوا للناس هما، ولكن ارفع يديك إلى مفرج الكروب، فإن السماء أكثر ترحيبا بدعوتك من آذان الخلق وصدورهم التي تضيق بما فيها.

وانهمك سامح ورفيقه المحاسب "سميح الفولي" في إعداد كوبين من الشاي قبل أن يتجاذبا إطراف الحديث في أمور شتي عما كان يربطهما من صداقة قديمة، واجتهد كلا منهما في سرد ما كان من ذكريات الماضي ثم انقضت ساعتين اضطر سامح بعدهما أن يستأذن صديقه في الرحيل لانشغاله بأمر هام، ومضت دقائق قضاها الرجل بصعوبة حتى كان بين يدي الطبيب الذي طمأنه بأنه التحاليل الآن تؤكد أن الجراحة ستكون آمنة بنسبة مائة بالمائة ولابد لابن سامح أن يحضر غدا لدخول غرفة العمليات صائما وأن الجراحة ربما تستغرق وقتا طويلا، وعندما غادر سامح عيادة الطبيب لم يكن يدري أين تأخذه الخطى وإلى من يلجأ، فتوجه على الفور إلى أمه وأخته في بلدته الصغيرة بعدما أبلغ زوجته بتعطل السيارة وأنها تحتاج إلى صيانة عاجلة حتى لا تشعر زوجته بأنها على هامش حياته لكنه في تلك اللحظة لم يكن يعنيه إلا أمر واحد وهو أن يلقي بنفسه بين أحضان أمه ليحتمي بقلبها من غربة الروح ووحشة القلب

عندما شعر بالخطر الذي يقترب من ابنه رغم طمأنة الطبيب له، وفي طريق عودته إلى بلدته فعل ما اعتاد أن يفعله عندما ذهب إلى قبر أبيه وزوجته ليدعوا لهما بالرحمة والمغفرة وليخلو بنفسه فيحدث زوجته حديثا لا صوت له، ولكنه في تلك المرة كان يشعر بأن لهيبا ينبعث من قسمات وجهه وأن كل خلية في جسده تنتفض رعبا وقلبه يرتجف والروح تكتوي بجمرات الخوف على الفتي الذي سوف يواجه بعد ساعات قلائل مبضع الجراح الذي ربما تنتهي معه حياة سامح نفسه إذا حدث ما لا تحمد عقباه، لكن الرجل الذي كاد ينهار باكيا من فرط الخوف تمالك نفسه ورفع عيناه إلى السماء قائلا:

– يا رب اللهم إني أسالك عفوك ورحمتك فارفق بعبدك الضعيف الذي يرجو رضاك

الفصل الخامس

تحرك سامح في خطوات بطيئة إلى سيارته، ثم القي بنفسه خلف عجلة القيادة منطلقا إلى بيت أبيه حيث تقيم أمه وأخته وطفلتيها، وما أن طرق الباب حتى هرعت أمه إلى الباب في فزع حتى كادت تسقط على الأرض حينما ارتجف قلبها رعبا لمجرد سماعها لنبرات صوت ابنها التي تقطر حزنا، وعندما أصبح بين يديها ألقي بنفسه بين أحضانها ملتمسا الأمان في تلك اللحظات الصعبة فشعرت الأم باضطراب أنفاسه فقالت في هلع:

– ماذا بك يا ولدي؟ ولماذا يرتجف قلبك ويعلو صوت أنفاسك التي غمرت وجهي بلهيب حارق؟

فقال وهو يحاول أن يتماسك:

– لا تقلقي يا أمي، إني بخير جئت إليك فقط ألتمس دعائك

فوضعت يديها على وجهه ولم يتمالك سامح نفسه فانهمرت دمعتان ساخنتان على خديه، فجذبته أمه من ذراعه وهي تهمس به قائلة وقد استبد بها الرعب:

– تزول الدنيا ولا أجدك على هذا الحال، فأخبرني بحق سهري عليك حتى بلغت أشُدك، ماذا بك يا سندي وساعدي وعيناي اللتان أري بهما ما حرمت من رؤيته؟

فأجهش سامح بالبكاء وقال في صوت تقطع له نياط قلب أمه:

– ابني مريض وسوف يخضع غدا لجراحة عاجلة ودقيقة بالقلب
فضربت الأم بيدها على صدرها وقالت في نبرات مرتجفة:
– فداؤك نفسي يا ولدي، فلا تحزن إن الله يسمع دعائي من فوق سبع سماوات
ثم تركته ونهضت لتغيب عدة دقائق بالداخل بينما كان هو يتصرف بعصبية وارتباك، فتارة ينتصب واقفا وتارة يجلس ويداه تتحرك في عشوائية وهو لا يعلم ماذا يحدث إلى أن عادت الأم ومعها قطعة مطوية من قماش أبيض وأخرجت منها فجأة قرطا ذهبيا وإسورة من الذهب كانت تحتفظ بهما منذ سنوات ثم مدت يدها إليه وهي تقول في نبرات مرتعشة تدعوا إلى الإشفاق:
– هذا كل ما أملك يا ولدي من متاع الدنيا، وهو لك الآن فأنت أبقى لي من أي شيء
ومد سامح يده إلى أمه وأمسك بكلتا يديها يقبلها شاكرا لها حسن صنيعها وهو يقول في امتنان
– بارك الله فيك يا أمي
ثم نهض مقبلا جبينها وهو يهمس قائلا:
– ما جئت إليك لأطلب مالا، وإنما جئتك أطلب دعائك فهو غايتي وملاذي الأخير
ورفعت الأم يديها إلى السماء وقالت في خشوع:
– اللهم فرج كرب عبدك وابن أمتك بحق قولك "وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان فليستجيبوا

لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون"
فقال سامح في خشوع وقد هدأت عاصفة الحزن التي غشيت قلبه ووجهه:
– صدق الله العظيم
ثم نهض واقفا وهو يقول مودعا:
– لا حرمني الله منك يا أطيب قلب في هذا الوجود لا تنسي الدعاء لابني فجرا، وسوف أزورك بعد أن يتم شفاء محمود ولك مني ولإخوتي جميعا السلام، والآن سأتركك في رعاية الله
ثم غادر البيت تاركا أمه وقد أوقد في قلبها جذوة من نار القلق لن تطفئها بحار الدنيا، وعندما عاد إلى بيته لم ينم ليلته قط، لكنه بقي يتردد ذهابا وإيابا بين حجرة زوجته وحجرة أبنائه، فنظر إلى وجه أولاده فإذا بهما يغوصان في عالم الأحلام، ثم تمضي دقائق بطيئة كأنما توقفت عقارب الساعة أو كأنها ليلة في سجن هي الأولى في حياة شاب تعرض للظلم والقهر، واكتفي الرجل بالخروج من شقته إلى الشارع منتعلا حذاء الوضوء ثم أشعل سيجارة تلتها ثانية ثم ثالثة، وبعد دقائق بدأت بشائر اليوم الجديد فعاد سامح إلى شقته ليتوضأ ويصلي ثم قضي ساعة يدعوا الله في ضراعة حتى غلبه النعاس فاستسلم إلى نوم عميق حتى أيقظه رنين الهاتف، فاستيقظ ثم أيقظ زوجته ونظر إلى ابنه الذي فاجأه بالاستيقاظ بمفرده دون أن يوقظه الأب الذي يحترق قلبه رعبا، لكن زهور الأمل نبتت في قلب سامح عندما رأى تلك الابتسامة الملائكية تغمر وجه

الفتي وهو يهمس مبتسما:
– صباح الخير يا أبي كيف حالك؟
فتنهد سامح وهو يقاوم الرعب الذي يعتصر قلبه ثم قال مبتسما:
– صباح الخير حبيبي
واقترب من الفتي الذي تثاءب ولا تزال آثار النوم على قسمات وجهه فجلس إلى جواره وغاصت أصابعه في خصلات شعر الفتي ثم قبله في حنان وهو يهمس قائلا:
– انهض يا بطل موعدنا اليوم مع زيارة الدكتور حمدي صديق بابا سامح الذي تحدثت معك سابقا عنه وقد قال لي أنه يريد أن يراك فهيا إلى حمامك المنعش وارتدي ثيابك لنقوم بزيارته
فقال الفتي وقد رفع حاجبيه دهشة:
– هل سنزوره في المستشفى؟
وتحامل سامح الذي تحاصر قلبه جبال الأحزان ليبدوا هادئا بينما ترتجف قسماته ويعتصر روحه القلق لكنه تصنع الابتسام قائلا:
– نعم يا صديقي فليس لديه وقت ليستقبلنا في بيته
وتمتم الفتي ضاحكا وهو يمد يده مصافحا أبيه:
– لا بأس سوف أكون مستعدا للخروج بعد دقائق
ومضت دقائق قليلة حتى دخل سامح في صحبة ولده وزوجته وطفلته هدير إلى المستشفى قبل أن يستقبل الدكتور "حمدي رفاعي" أستاذ الجراحة الفتي المريض بوجه مشرق بابتسامة أب وهو يمازح الفتي ويقرص خده في مرح ثم ابتسم في وجه الفتي

قائلا:
– مرحبا بالبطل الشجاع
و استطرد الطبيب قائلا:
– دعني أعقد معك اتفاقا وليكن أبوك شاهدا على هذا
فقال الفتي:
– اتفاقا؟
ثم أردف قائلا:
– اتفاقا على ماذا؟
فقال الرجل وقد تعمد الابتسام:
– سوف أعطيك حقنة تساعدك على أن تمارس كرة القدم لعدد ساعات أطول مما مضى لأنها سوف تحسن قدرتك على التنفس كثيرا، ولكن عليك أن تحتمل وخز الإبرة فقط، وبعد إتمام الأمر لك مني هدية
فقال الفتي وقسمات وجهه ترتعش رعبا لكنه تظاهر بالشجاعة والثبات:
– اتفقنا ولكن لو تراجعت عن إحضار الهدية فسوف يغضب أبي منك مثلي وربما أكثر
فضحك الطبيب وهو يرمق الفتي بنظرة إعجاب قائلا:
– اتفقنا يا بطل
وقام الطبيب بالتمهيد لتخدير الفتي بطريقة خاصة لم يرها الأب سامح نفسه حتى دخل طبيب التخدير وكان الفتي قد استسلم لما اتفق عليه مع طبيب القلب وكانت ضربات قلب سامح في

تلك اللحظات أعلى صوتا من طبول الحرب، وظل خارج حجرة الجراحة يتمتم بالتسبيح والأدعية والآيات وينظر إلى وجه ابنته التي كانت لا تعلم ماذا يجري، فقد أوهمها الأب في طريقهم إلى المستشفى بأن محمود سوف يخضع لجراحة بسيطة ولم يكن في حاجة إلى مثل هذا ولكنه كان يريد من حديثه لابنته أن يهب نفسه قليلا من الأمل حتى لا يتوقف قلبه رعبا، ومضت ساعات ثقيلة كأنما أصابت عقارب الساعة في أنحاء الأرض كلها نوبة شلل مفاجئ فرفضت الحركة لتترك قلب الرجل الذي ينتفض رعبا، فقد كان سامح يخشى أن يكون ابنه فصلا أخيرا في قصة حب لم تكتمل، كانت كلمة البداية في فصلها الأول عندما التقي سامح برانيا والدة الفتى منذ سنوات لأول مرة، وكانت رانيا ترفض لقاء سامح خجلا قبل أن تكون يوما ما زوجة له وأما لأبنائه، فكان على سامح أن يحارب الدنيا والظروف حتى لا تكتب يد الطبيب مشهد النهاية في قصة حبه الخالدة إذا ما مات الفتي دخل تلك الغرفة الصماء التي تفوح منها رائحة الموت، وكان سامح نفسه يكاد يواجه الموت البطيء من فرط الرعب حتى فوجئ بابن أخيه خالد يقف عن يمينه ومعه والده عادل شقيق سامح الأصغر وزوجة عادل وابنته وأمه وأخته وابنتيها ومن تبقي من العائلة والأقارب والجيران حوله فالتمس بالأنس بهم جميعا راحة من ضجيج القلب وصيحات العقل وأنين الروح إلى أن تأبط أخيه ذراعه وانتحي به جانبا، ثم اخرج من جيب جلبابه حزمة ضخمة من الأوراق المالية ثم ناولها إياه

بعد أن أقسم يمينا مغلظا ألا يرد أخاه يده وبها النقود إلى جيبه مره أخرى، فقال سامح وهو يغوص بعينيه في عيني أخيه:
– لماذا فعلت هذا وكيف أوجدت هذا المال عاجلا بهذه السرعة؟
فربت أخيه على كتفه قائلا:
– لا عليك يا شقيقي فلا تشغل بالك الآن بأمر المال المهم سلامة ابني محمود
فنظر إليه سامح دون حديث لكن عادل استطرد قائلا:
– أليس العم أب في غياب الأب؟
وعندها غاصت أصابع سامح في لحم كتفا أخيه وهمس في حنان بالغ:
– نعم أب في غياب الأب وفي حضوره أيضا يا شقيقي
ثم تنهد قائلا في ارتياح بالغ:
– محمود ابنك كما هو ابني
وأحاط سامح وجه أخيه بكفيه ثم قال وهو ينظر إلى عينا أخيه شاكرا:
– أدامك الله لي ساعدا اتقي به عثرات أيامي واستند إليه كلما عصفت بي رياح الدهر العاتية
ولم تمضي إلا دقائق حتى صارت طرقات ومداخل المستشفى تعج بالزائرين وامتلأت الحديقة بالأطفال ثم خرجت إحدى الممرضات تبشرهم بانتهاء الجراحة فانهالت عبارات الشكر وأشرقت الوجوه بالابتسامة ولهجت الألسنة بالدعاء وتمتمت

القلوب بآيات الحمد لله والثناء عليه وخر سامح ساجدا شكرا لله على هذا الفضل وتلك المنة التي انعم الله بها عليه، وخرج الفتي بعدها إلى غرفة العناية الفائقة بالمستشفى ليقضي بها فترة كان الصمت والترقب الحذر يخيم فيها على بيت سامح وأغلب بيوت عائلته حتى غمرت الفرحة بيوت العائلة بعد أن أظلت عناية الله الفتي محمود برحمة الخالق فعادت الروح تدب في جسد أبيه وشقت الابتسامة طريقها إلى وجهه بعد طول غياب، وعاد إلى عمله محتملا كل ما يلقاه من مشاق وعقبات فلن يري طيلة حياته أصعب من تلك الساعات التي قضاها ابنه في حجرة الجراحة قبل أن يبدأ في التحسن التدريجي بعد أن مضي أسبوعين كاملين على تلك اللحظة القاتلة ولكن الرجل لم ينسي لأصحاب الفضل عليه فضلهم وكان أقربهم إليه شقيقه عادل الذي اتصل به سامح هاتفيا في عصر أحد الأيام فقال له مبتسما:

– بالله عليك أخبرني من أين أتيت بالمال الذي أعطيتني إياه يوم الجراحة؟

فقال عادل:

– لقد بعت رأسين من ماشيتي دون أن أربح فيهما شيئا ولن يعز عليك مال الدنيا يا أخي، فلا تقلق نفسك وكن على يقين بأني لن أتخلي عنك ما حييت

فرفع سامح حاجبيه دهشة ثم قال شاكرا:

– أطال الله في عمرك وبارك في رزقك وحفظك يا شقيقي

وعندما أنهى الاتصال مط شفتيه ثم قال في نفسه:
– كيف تحول أخي بهذا الشكل الغريب، لقد كان المال عنده أعز من النفس والولد حتى وإن كان من صلبه فلماذا الآن يفعل معي كل هذا؟
ثم استطرد مخاطبا نفسه فلم يسمع صدي صوته سواه حين قال:
– لو فعل هذا مع أبنائه ما احتمل كلاهما عذاب الغربة وفراق الأهل والوطن لأجل المال لكن الرجال خلقت لتحتمل الكثير
ثم تأوه هامسا:
– الرجال للشدائد وعظائم الأمور، كلما اشتدت قسوة الدنيا عليهم الدنيا تظهر قسوتها معادنهم هكذا علمتنا الأيام
ولم تمض إلا دقائق حتى تهيأ سامح لمغادرة بيته بعد أن ارتدي ثيابه واطمأن على صحة ولده وصافح أمه التي بقيت ضيفا عنده منذ يوم الجراحة وحتى الآن، ثم خرج من بيته مغادرا وهو يتوجه إلى حي السيدة زينب بالقاهرة قاصدا زيارة صديقه جمال عبد الرحمن بعد أن وصلت إليه أخبار في اتصال هاتفي من أحد الزملاء إصابة صديقه جمال بنزلة برد منعته من الخروج من المنزل منذ عدة أيام، ولم تمضي سوي دقائق حتى وصل سامح إلى شقة جمال ثم طرق الباب وإذا بجمال يفاجئه عند الباب، وعندما رأى سامح صديقه انفجر ضاحكا فقد كان جمال يرتدي عمامة بيضاء كما يفعل الفلاحون عادة ولكنه كان يمسك بمنديل ابيض ويضعه فوق انفه ولا يكف عن السعال

والعطس، ثم ترك سامح عند الباب وانصرف مسرعا ليستلقي في فراشه قبل أن يهتف به بصوت متحشرج كخوار ثور مذبوح
– أغلق الباب خلفك واتبعني
ثم تنهد في عمق وغاب في نوبة سعال لكنه تحامل ليستطيع الحديث قائلا:
– من أبلغك بأني مريض؟ ولم أجهدت نفسك وتعطلت عن رعاية ابنك؟ وكيف تسير به الأمور الآن؟
ثم حاول النهوض فلم يستطيع فترنح في فراشه وهمس قائلا:
– ألم يستقر بعد؟ هل يتحسن أم أنه لا يزال يحتاج إلى وقت طويل ليتعافى؟
فقال سامح وهو يغالب الضحك:
– نعم أنه بخير، ولكن اخبرني أنت ما كل هذا الاحمرار البادي على أنفك ووجهك؟ هل أدخلت وجهك في ماكينة عصر الطماطم؟ أم أنك كنت تجني ثمار الطماطم في حلمك الليلة؟
فنظر إليه جمال مبتسما وقد استبد به الغيظ المكتوم:
– هل جئت تطمئن على صحتي أم تتندر على حالي؟
فاقترب سامح واضعا يده عند رأسه ثم ربت على كتفه قائلا:
– لا باس عليك يا صديقي شفاك الله وعافاك ولكني..
فقال جمال بعد أن استقر جالسا:
– ولكنك ماذا؟
ثم أمسك طرف أنفه بأصابعه قائلا:
– أخبرني أولا لماذا نشب خلاف حاد بينك وبين الأستاذ

ممدوح رئيس الحسابات في شركة الفهد للتصدير
فقال سامح وقد تغيرت ملامح وجهه فنضبت البشاشة فجأة:
– لأنه يريد مني ما يتعارض مع مبادئي، وقد تعلمت درسا من الحياة أن الروح والرزق ليست إلا بيد الخالق وحده فلن تموت بقرار من أحد ولا ينقطع رزقك بإذن مخلوق، وقد اتخذت موقفا حياديا من تسلط الرجل في قراراته ضد بعض الزملاء لكن فيما يخصني ..
فتأوه جمال من فرط الألم وتحول مسار الحوار إلى حديث آخر فقال سامح
– ألم تقم بزيارة طبيب؟
وارتفع حاجبا جمال دهشة ثم صرخ فجأة:
– لقد ذهبت إلى ثلاثة من الأطباء وليس طبيب واحد وكل منهم يكتب لي دواء يتناقض مع ما يكتبه الآخر حتى سئمت كل شيء واكتفيت بالمشروبات الساخنة لكني والحمد لله تحسنت قليلا
فانعقد حاجبا سامح وسأله مندهشا:
– وماذا تفعل في وحدتك يا جمال؟
فقال جمال وقد ارتسمت على وجهه علامات الرضا:
– لست وحيدا فرسائل الأصدقاء واتصالاتهم لا تنقطع، وزيارات بعض الجيران والأقارب لم تترك لي وقتا أشعر فيه بالوحدة رغم أن زوجتي لا تعلم شيئا عما حاق بي
فصرخ سامح في غضب عارم:

– ألم تعد زوجتك من بيت أبيها حتى الآن؟
فقال جمال في هدوء:
– لم تعد ولا تعنيني عودتها أو استمرار الغياب
فقال سامح وقد مص شفتيه أسفا:
– وماذا تفعل بين هذه الجدران الأربعة؟
فقال جمال في نبرات هادئة:
– لدي الكثير من الأشياء لأفعلها، مثل القراءة ومشاهدة الأفلام والمسلسلات التي تأخذني إلى عالم آخر، وتباعد بيني وبين هذا الواقع المقيت وتلك الجدران الصماء كأسوار السجن
وانفجر سامح ضاحكا ثم نظر إلى عيني صديقه قائلا:
لقد كتبت مقالا عن قضايا الواقع والسينما منذ فترة
فضحك جمال فجأة قبل أن يتأوه من فرط الألم ثم يتراجع مترنحا في فراشه ثم قال وهو يتنهد في صعوبة بالغة:
– وماذا كتبت ولماذا كتبت؟
فقال سامح وقد نهض واقفا:
– لقد لاحظت من أداء فنان مثل أحمد زكي أو نور الشريف احتراما لقيمة الفن ولعقل المشاهد في معظم الأعمال الدرامية المأخوذة عن مصدر أو أصل أدبي والتي شاهدتها أن هؤلاء النجوم لا يقدمون عملا دراميا مكتوبا لتحقيق مال أو شهرة فقط، ولكنهم يعبرون بملامح الوجه وقسماته وانفعالاته عن صدق يكمن خلفه إيمان حقيقي لدى كلا منهم بحب الحق والخير واحترامه لحقوق الإنسان وحق الإنسان البسيط في حياة

كريمة يتحقق فيها العدل وتحترم فيها آدمية الإنسان مهما كان ضعيفا أو فقيرا أو بسيطا

فابتسم جمال وقال في مرح:

– هكذا كان سامح وهكذا سوف يظل دائما نجم نجوم النقد الفني والدراما وعاشق الكاميرا

فانفجر سامح ضاحكا وقال في نبرة توحي بالتحسر على زمن مضى:

– ليتك رأيتني في أيام الدراسة الجامعية، لم يمضي لقاء مع نجم أو كاتب أو فنان إلا وشاركت فيه

فقال جمال:

– وفقك الله إلى ما يسعدك فيعلو نجمك وتنال ما تريد

ونهض جمال ليتوجه إلى مطبخ الشقة حتى يعد لنفسه ولصديقه كوبين من الشاي قبل أن يتحدث إلى سامح من خلف ستار يحجب المطبخ عن مدخل الشقة والحجرة الرئيسة بها

قائلا في هدوء:

– هل يمكن أن يعود بنا الزمان إلى الوراء يا سامح لنحيا بقلوبنا الخضراء كما كنا صغارا

ومط سامح شفتيه أسفا وهو يهمس:

– لا أعتقد لأن العهد الذي انقضي لا يعود أبدا وقد مضي عهد الطفولة إلى غير رجعة

فتحامل جمال ليعود إلى فراشه قبل أن يقول:

– صدقني يا عزيزي ليس الذكريات وحدها كفيلة بتحقيق

السعادة، لكن بمحاولة تحقيق السعادة لغيرك تشعر بها، فمن يروي الأرض الظامئة لابد وأن يرتوي هو أولا
فقال سامح وقد رفع حاجبيه دهشة وغمرت وجهه ابتسامة عابرة
– طول عمرك أستاذ يا صديقي ولكن..
فنظر جمال إلى وجهه متسائلا وهو يتنهد بعمق:
– ولكن ماذا؟ هل سوف تتركني وحيدا وعلي هذا الحال؟
فقال سامح معتذرا:
– سامحني يا صديقي، فسوف أعود إلى بيتي فورا لأن أبنائي ينتظرونني خصوصا محمود لأروي له قصة المساء فلم يعد يستطيع النوم منذ إجراء الجراحة قبل أن أقضي معه ساعة قبل نومه ويدور بيننا حديث طويل
وغادر سامح شقة صديقه عائدا إلى بيته وهو يقاوم القلق الذي يكسو عقله كسحابة سوداء طال مكثها على صفحة العقل فانقبض القلب وتوجعت الروح، لكنه ظل يفكر فيما دار من حديث حول قضايا كثيرة بينه وبين صديقه، وما كان من الأصدقاء بالشركة وعند الاجتماع الأخير من حديث سابق عن هذه المشكلات الناجمة عن سوء الأحوال وما يعاني منه البسطاء والفقراء في مصر حاليا، وأيضا ما يتعرض له بعضهم في حياته من مشاق ومتاعب قد تركت في نفس سامح آثارا سيئة أحاطت قلبه بالكثير من غيوم الشك وسحب الكآبة، وهداه تفكيره إلى حيلة جديدة يغرس بها حب الشجاعة والتفاؤل في قلب ابنه فقرر أن ينسج قصة قصيرة يقصها على الفتي قبل نومه

بعد أن تعود الفتي من أبيه أن يروي له كل يوم حكاية، وكانت سيارة سامح قد وصلت إلى المكان المعتاد الذي يتركها فيه حتى الصباح فغادرها وهو يفكر فيما يجب أن يقول، وكان عليه أن يقدم لابنه ما يمتعه من حديث فشرع في تنفيذ ما قرر أن يفعل، وبعد دقائق كان قد دخل إلى شقته فصافح زوجته وقبل جبين ابنته، ثم دخل إلى حجرة أمه وقضي معها بضع دقائق في حديث المساء اليومي لعلها تخفف عنه ما يكابد من مشاق في عمله وحياته، ثم لم يلبث أن استأذن أمه مودعا وجلس في الصالة الواسعة يتصفح جريدة حتى هبت على أنفه رائحة الطعام الذكية فأطفأ مصابيح العقل السابح مع عيناه متجولا بين صفحات الجريدة ثم نهض ليغسل يداه بينما أعدت زوجته الطعام وأسرعت الخطي لتقدم للفتي الذي ما زال يتعافى من جراحة مضى عليها فترة طويلة طعامه المعد خصيصا له بدون ملح زائد أو توابل وفقا لتعليمات الأطباء، وعاد سامح ليستقر عند رأس المائدة وشاركته أمه الطعام ولكنها كانت تخفي شيئا فقال سامح وقد أصابه الكدر لما رأى من تغير في وجه الأم:

– ماذا بك يا أمي؟ هل أصابك مكروه لا قدر الله

وتحاملت الأم فقالت بابتسامة مكسورة:

– لا شيء يا ابني، ولكني قد اشتقت إلى جيراني وبيتي وأجد في نفسي لوعة واشتياقا لا ينتهي لحديث السمر الطويل مع الجارات بعد العصر وحتى يحين المغرب كعادتنا كل يوم، فلم أعد أستطيع أن أبقي هكذا حبيسة الظلام وسجينة الجدران

الأربعة حتى تعود
فتنهد سامح وقال مبتسما:
– هل كرهت صحبتي يا أم عادل؟
فقالت في ابتسامة صافية:
– وأم سامح يا ابن بطني، فلا تظن إني أجحد فضلك
فقطب وجه سامح وصاح غاضبا:
– فضلي؟ أي فضل لي عليك يا أمي؟
ثم ضرب كفا بكف وهو يقول في غضب معاتبا:
– إنما الفضل لله يا أمي، ولو إأني طفت بك الدنيا وأنا أحملك فوق رأسي، ولو خضت بك البحر أو صعدت بك إلى الجبل فلن أعطيك بعضا من حقك في حياتي
فنظرت إليه زوجته في دهشة وقد اتسعت عيناها وهي تشرق ببريق مرده الإعجاب بهذا الزوج البار بأمه وحدثت زوجته نفسها بغير حديث:
– ليتني أم لرجل مثلك يا سامح ولكن لله في خلقه شئون
ونهض سامح مقبلا رأس أمه ثم قال في مرح:
– سوف أطمئن على البطل الصغير وأعود لأنام تصبحون على خير وبركة
فأشارت زوجته مودعة بينما قالت أمه من أعماق قلبها:
– وأنت بخير يا نور العين وبهجة القلب
ودخل سامح إلى حجرة محمود وألقى بنفسه إلى جواره متأوها وهو يقول في مرح:

– ما أخبار البطل الشجاع؟ كيف حالك يا حبيبي؟
ابتسم الفتي في وداعة وهو ينظر إلى أبيه الذي غاصت أنامله في خصلات شعر الصغير مداعبا قبل أن يهب واقفا وهو يلوح بيديه قائلا:
– لك مني اليوم هدية رائعة كعادتنا كل مساء قبل النوم
فقال الفتي مبتسما في هدوء:
– إذن هي قصة جديدة أليس كذلك يا أبي؟
فقال سامح وقد انحني إلى الفتي يقبل جبينه:
– نعم يا قلب أبيك، هي قصة جديدة وعن فارس من فرسان الأساطير، لكن كثيرون منا شاهدوه وتكلموا معه وعرفوه حق المعرفة، طبيب الأدب العربي
صاح الفتي ثم قال وقد اتسعت عيناه لهفة وشوقا:
– من يكون هذا الطبيب؟
– أنه "العراب"
واتسعت عينا الفتي دهشة قبل أن يستطرد أبيه متجاهلا دهشة الفتي:
– أو بصورة أكثر دقة هو الكاتب الكبير الدكتور "أحمد خالد توفيق" وتستطيع أن تسميه فارس الكلمة
فقال الفتي في براءة:
– ولماذا اخترت هذا الرجل يا أبي لتقص عنه حديثك لي في هذه الليلة؟
فابتسم الرجل واقترب في مجلسه من جبين الفتي ويده عند

وسادته تعبث بحنان في خصلات شعره وقال وهو ينظر إلى عيني الفتي:
– لأنه ليس كأي إنسان فهو جراح القلوب وطبيب العقول وله في كل ميدان بصمة أدبية.
فقال الفتي وهو يحاول أن يقبل أبيه بعد أن أحاط عنقه بذراعيه:
– طالما حاز إعجابك يا أبي إذن هو رجل من ذهب
فقال سامح وهو يتنهد مبتسما:
– إنه لم ينال إعجابي وحدي، فهناك على ظهر الأرض الملايين من البشر يعشقون هذا الرجل لأنه صاحب رسالة في الحياة فحواها ذلك القول الشائع بين الناس "ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط "
ثم امسك سامح طرف أنفه مبتسما وهمس إلى الفتي:
– ولذلك وهب هذا الرجل قلمه ووقته وجانبا كبيرا من حياته لخدمة الناس
فقال الفتي:
– كيف يا أبي وماذا فعل؟
ويبتسم الأب وهو يتحدث إلى نفسه حديثا خاصا دون أن تتحرك شفتاه:
– من الواضح أن ليلتك لن تنتهي يا محمود
ثم تنهد وهو يهز رأسه وحديثه الخاص لنفسه يتواصل عندما قال مبتسما:
– أمري إلى الله وليقدر الله لي في الغد ما يشاء

ثم قال متحدثا إلى الفتي:
– اسمع يا بطل لعلك تقتدي بهذا العراب ولكم أتمنى أن أراك مثله في كل شيء
ثم تابع سامح حديثه قائلا:
سوف أقص عليك بعض مما عرفته عنه ولم تمض ثواني حتى تثاءب سامح فجأة ووضع يده فوق فمه وإذا به رغما عنه يغوص في بحر الأحلام تاركا ابنه ينظر إلى أبيه وقد أخذته الدهشة مما سمع من حديث أبيه الذي لم يكتمل لأنه انتهي قبل أن يبدأ
وابتسم الفتي الصغير حين غرق أبيه في بحار النوم تاركا ابنه وحيدا يغالب الشوق واللهفة ليعرف المزيد عن هذا الرجل الذي تحول بفعل الكتابة والقلم وإخلاصه للأدب إلى أسطورة يحلم كل أب أن يغرس صورتها في أذهان وقلوب أبنائه ولكن سامح نام قبل أن يغرس شيئا في تلك الليلة

الفصل السادس

أيقظ رنين الهاتف المفاجئ زوجة سامح من نومها العميق في منتصف الليل فإذا بها ترد بعبارات يخالطها النعاس وقد أتت عبارات أمها توحي بالتوتر والقلق حين قالت الأم فجأة:

– أمال، التمسي لي عذرا يا ابنتي، فقد نقلت الإسعاف أختك ماجدة منذ أقل من ربع ساعة إلى المستشفى بعد أن فاجأتها آلام المخاض في وقت مبكر ولم يكن زوجها الذي تغيب عن شقته في رحلة خارج القاهرة تستمر ثلاثة أيام لإنجاز بعض الأعمال يتوقع أن يأتي مولوده الأول إلى الحياة مبكرا بهذه الصورة

تثاءبت آمال وقالت وهي تتأوه:

– لا بأس يا أمي سوف استأذن من سامح وأكون إلى جوارك خلال دقائق

ودخلت أمال إلى حجرة مكتب الزوج اعتقادا منها أنه نام بين أوراقه وخلف مكتبه كما يتكرر كثيرا لكنها لم تجده، ولم يكن يدور بعقلها ذلك الخاطر الغريب إلا أن حركتها المضطربة بأنحاء الشقة صحبها ضوضاء أيقظت والدة سامح التي تساءلت في قلق:

– من بالخارج يا أبنائي؟

فنادت أمال والدة زوجها من بعيد:

– أنا يا أمي فلا تقلقي
وعادت الجدة إلى نومها ثانية ولم تكترث بعدها لما يحدث بينما استيقظت الطفلة هدير عندما أحدثت تصرفات أمال اللاهثة الخطي والاتصال المفاجئ في فضاء الشقة صخبا وضجيجا، فانتظرت أمال حتى أنهت الطفلة حمامها الصباحي ثم كلفتها بإيقاظ أبيها فإذا بالفتاة تتوجه على الفور إلى حجرة شقيقها لتجد الأب محتضنا الفتي وغارق في نومه وهو لا يدري بما حدث منذ دقائق فأمسكت بأذن أبيها وهزت رأسه في دعابة وهي تقول:
– استيقظوا يا سادة، فقد دقت ساعة العمل
ونهض الأب متأوها وهو يبتسم في هدوء بعد أن احتوي ابنته بين ذراعيه وقبل وجنتيها قائلا:
– مرحبا صغيرتي الجميلة كيف أنت الآن؟
فقالت الفتاه في مكر طفولي:
– إني غاضبة منك يا أبي، فمنذ أن مرض أخي محمود لم نخرج للتنزه يوما فهل يرضيك هذا؟
فاحتضن الأب ابنته بكل حنان وقال في هدوء حذر كأنما يبلغها سرا:
– سوف نخرج اليوم فلا تخبري أحدا
وخرج الرجل من شرنقة الأحزان متعللا بانشغاله بالعمل وبأنه سوف يلحق بزوجته بعد انتهاء عمله ولكنه قال لأمه أنه سوف يصطحب ابنته إلى المدرسة لأنه يريد مقابلة أحد معلميها

بالمدرسة لأمر هام فأوصته، أمه بوصية غريبة عندما قالت:
– لقد تحسنت صحة ابنك يا سامح فلا تنشغل بي يا ابني فإما أن تعيدني إلى بيتي فأمكث مع أختك وبناتها أو أن تبلغ جارتي أم فاتن بأني أود أن أراها، فقد اشتقت إلى صوتها وحديثها كثيرا، وكان رد الابن البار هادئا كعادته حين يتحدث إلى أمه:
– كل ما تأمريني به ليس له مني إلا السمع والطاعة يا ست الحبايب
وقد أبلغ سامح أمه أنه سوف يعود في المساء ومعه السيدة فوزية الشهيرة بين نساء الحي في بلدتهم بأم فاتن لتقضي بصحبة أمه عدة ساعات، وانطلق سامح في طريقه إلى المدرسة ثم التقي بأحد مدرسيها ليطمئن على مستوي ابنته في مادة الرياضيات وباقي المواد الدراسية بعد أن شغلت الأب أعبائه في الفترة الأخيرة والتي كان منها مرض الابن وما تعرض له الفتي من جراحة دقيقة، ثم اصطحب الفتاة وانطلق بها إلى مدينة ملاهي شهيرة في جنوب القاهرة وظل يلهو ويمرح كالطفل في محاولة لتعويض الفتاة عن قسوة الأيام السابقة، لكنه لم يكن يريد أن يصارح نفسه بأنه كان أشد احتياجا إلى اللهو والمرح من طفلته الصغيرة بعد أن بددت قسوة الأيام في الماضي ما كان من شجيرات من الفرحة التي نبتت في صحراء قلبه القاحلة التي أحاطت بها الهموم والمتاعب حتى تلاشت وصار قلبه كجزع ضخم لشجرة عتيقة جفت فروعها وأسقطت رياح الخريف أوراقها فما عادت تمنح الظل حتى لذلك الجذع الذي مات

وهو يقف صامدا.
هكذا كان قلب سامح أقرب إلى مدينة عامرة هجرها الناس عندما حل الجفاف وساد الظلام وعم الخوف فماتت فيها الحياة وحلت الوحشة وهجرتها الكائنات، فأصبح قلب الرجل كمدينة أشباح لا يسكنها إلا الصمت ولا يلون جدرانها إلا السواد ولا يشم العابر لها إلا رائحة الموت.
وعندما تعاظم هذا الشعور كان لابد للحياة أن تهب قلب الرجل نسمة من السعادة تعيده إلى الحياة كصدمة كهربائية لقلب كاد يتوقف ولم تكن رحمة الله غائبة عن رجل كان ولا يزال بارا بأمه فما كاد ينتهي اليوم إلا وبشرته زوجته بقدوم المولود الجديد "سامح حسام" والذي سماه أبوه سامح تيمنا باسم سامح زوج خالة المولود فكان هذا الأمر سببا في أن شعر الرجل بارتياح شديد، فعاد إلى بيته راضيا وهو يمرح ويغني في صحبة طفلته أغاني الأطفال، ثم أوصي الفتاة بأن ترحب بالجدة وضيفتها التي كانت قد رافقته في طريق عودته إلى بيته عندما مر بالقرية مر السحابة في يوم عاصف فأبلغ السيدة العجوز برغبة أمه في لقائها ولبت الأرملة العجوز أمنية صديقتها في أن تراها ولم تكن والدة سامح تري الناس إلا بقلبها ولا تشعر بالدنيا إلا من خلال أذنيها، لكن سامح على الرغم من مشاغله لم يتخلف عن زيارة أخت زوجته في المساء وكان قد أحضر هدية رمزية للطفل الوليد وعرض على أبيه بعض من المال، لكن الأب أبى أن يقبل أي أموال من أقارب أو أصدقاء، وكان قد عاد منذ

ساعات من سفره البعيد، واستضاف جد الطفل لأمه والد زوجة سامح ابنته وطفلها الوليد في بيته فاستأذنت أمال زوجها في أن تقوم بزيارة بيت أبيها ولم يمانع الرجل بعد أن وقفت زوجته إلى جواره عندما مرت به ظروف عصيبة أثناء مرض الفتى محمود وعلاجه، فعاد سامح إلى بيته وحيدا ليقضي شطرا من الليل ساهرا بمكتبه حتى ضاق ذرعا بما يعاني من الوحدة والملل فعاد يبحث عن ما يجدد به حيوية الأيام فشاهد فيلما سينمائيا جديدا لكن الظروف لم تهبه الفرصة لاستكمال مشاهدة الفيلم عندما استيقظ ابنه فجأة وناداه قائلا:

– أبي أريد أن أشرب، فهلا أسقيتني؟

فردد سامح بيتا من الشعر كان يحفظه منذ الصبا وهو يتوجه في صمت إلى الثلاجة ليحضر لابنه ما طلبه لكنه مضي يتمتم مترنما في نبرات هامسة ووجهه مبتسما قول الشاعر

كليني لهم يا أميمة ناصب ۞ وليل أقاسيه بطيء الكواكب

تطاول حتى قيل ليس بمنقض ۞ وليس الذي يرعى النجوم بآيب

ثم عاد إلى الفتي يحمل في إحدى يديه زجاجة مياه بينما تحمل الأخرى كوبا فارغا فشرب الفتي حتى ارتوي ثم ناوله أبيه منديلا فمسح الفتي شفتيه فقال الرجل مبتسما في وجه الفتي:

– هنيئا يا بطل

ثم مط شفتيه مبتسما لما رأى الفتي مبتسما وقد توردت وجنتاه حتى كادت قسمات الفتي تضيء كالقمر عند اكتماله، فهمس الأب في نفسه قائلا:

– ما شاء الله، ابنك كالبدر يا رانيا، رحمك الله رحمة واسعة وجعل مثواك الجنة

وقطع الفتي على أبيه صمته الصاخب حين قال في براءة:

– أبي! لماذا تقف هكذا صامتا؟ إني أريدك في أمر هام

فالتفت إليه سامح قائلا في حنان يملأ الأرض عطرا وعبير:

– اطلب ما شئت يا قلب أبيك فإني رهن إشارتك من الآن وإلى آخر عمري

فأشار الفتي بكفه الصغير ليقترب أبيه قبل أن يهمس الفتي:

– تعالى إلى جواري فقد اشتقت إلى حديثك عن ذلك الفارس النبيل الذي حدثتني عنه منذ أيام

واقترب الرجل على الفور من الفتي بعد أن فشلت كل محاولاته للتذرع بأي حجج واهية يحاول بها التملص من تنفيذ مطلب الصغير فما كان يجرؤ على الاعتذار للفتى بأي طريقة تتيح له أن يخلد إلى النوم مبكرا فجذب الرجل مقعد خشبيا وقال:

– تحت أمر الأمير الصغير

ثم تنهد وهو يضم شفتيه بلا حديث وعيناه تدوران في أنحاء غرفة ابنه، فلا صوت يمزق ستائر الصمت في تلك الليلة إلا حديثه المتبادل مع الفتي الصغير بعد أن نامت طفلته هدير وأمه وضيفتها التي أصرت الأم على أن تبقي معها حتى الصباح، وقطع الفتي على أبيه صمتا طال عندما قال في براءة الأطفال:

– لماذا أحب الملايين ذلك الكاتب الكبير

فتنهد الأب متأوها وقال في ابتسامة عذبة:

– لأنه جعل الناس يحبون القراءة لكل حرف يكتبه بيده
وارتفع حاجبا الفتي دهشة وهو يصيح قائلا:
– هل هذا معقول؟ وهل هو سعيد بذلك؟
فقال الأب في هدوء وبنبرات مؤثرة:
– نعم يا صغيري فإن حب الأدب يسري في دماء القراء كالدواء في شرايين المريض حين يقرأ لأصحاب الكلمات الراقية، ألم تسمع من أحد معلميك ذات يوم بالمدرسة حديث النبي محمد ﷺ الذي قال فيه عندما سأله عبد الله ابن عمر وكان من أصحاب النبي ﷺ "أن خير الناس أنفعهم للناس وخير الأعمال إلى الله سرورا تدخله إلى قلب مسلم"
فقال الفتي:
– نعم سمعت يا أبي ولكني لم أفهم معنى هذا الحديث
وكان الفتي قد بدا يشعر بالإرهاق فقال سامح:
– إن معني الحديث يا ولدي أن من أعطى للناس كان عند الله من أفضل الناس وخيرهم، وأعطاه الله من خزائن الزرق ما لا يعد ولا يحصي، لأن خزائن الرزق بيد الله، وهي لا تنفذ أبدا، وقد أعطى ذلك الرجل من فكره وعلمه الكثير للملايين من قرائه الذين عشقوه كما عشقوا سطورا خطها بأنامله فوق صفحات كتبه ورواياته.
فقال الفتي:
– ماذا تعني كلمة لا تنفذ يا أبي؟
فقال سامح:

– أي لا تنتهي أبدا يا صغيري
وعاد الفتي يسال أبيه:
ولماذا تعلق الناس بهذا الرجل وأحبوه كل هذا الحب؟
فأجاب الأب:
– لأنه بحر زاخر من بحار الفكر والأدب
واتسعت عينا الفتي دهشة وقال وهو يحدق في وجه أبيه وصاح فجأة
– كيف هذا؟
ثم تنهد قائلا:
– هل تعرف شيئا عن هذا الرجل يا أبي؟
فقال سامح:
– نعم يا محمود أعرف عنه قليل من كثير يا ولدي
ثم اتخذ سامح مقعدا قريب مجاور لسرير الفتي وشبك أصابعه خلف رأسه وتنهد قائلا:
هذا الرجل هو دكتور أحمد خالد توفيق وكان طبيب متخصص في الأمراض الباطنية وأستاذ بكلية الطب جامعة طنطا وهي ذاتها المحافظة التي ولد فيها عام ١٩٦٢ وقد كان هذا الرجل من الأدباء العرب القلائل الذين خاضوا تجربة الكتابة في أدب الرعب في مهد ظهور هذا التوجه الأدبي في وطننا العربي يا محمود وبدا رحلته مع الأدب بإصدار سلسلة ما وراء الطبيعة عام ١٩٩٥ ثم سلسلة سفاري عام ١٩٩٦ ومن اشهر رواياته "يوتوبيا" ورواية "السنجة" ورواية "ايكاروس" ورواية "في ممر

الفئران" ورواية "عقل بلا جسد" ورواية "الآن نفتح الصندوق" وكانت في ثلاثة أجزاء وقد انضم هذا الكاتب العملاق عام ٢٠٠٤ إلى عالم الصحافة المصرية وكان يكتب في مجلة الشباب بجريدة الأهرام ثم كتب في جريدة التحرير والعديد من المجلات الأخرى، ثم قام هذا الأديب العملاق بنشر رواية مترجمة كانت تحمل اسم رجفة الموت وهي روايات رعب مترجمة ثم ترجم رواية أخرى كانت تحمل اسم "نادي القتال" لكاتب أمريكي هو "تشاك بولانيك" ثم ترجم رواية "ديرمافوريا" للكاتب الأمريكي "كريج كليفنجر" ثم ترجم رواية عداء الطائرة الورقية للكاتب الأمريكي من أصل أفغاني "خالد حسيني" وكانت أولى روايات دكتور احمد خالد توفيق تحمل اسم "أسطورة مصاصي الدماء" وقد تنبأ الرجل بوفاته ذات يوم في بعض كلمات دونها على صفحات التواصل الاجتماعي فيسبوك الآلاف من عشاق هذا الرجل وكانت كلماتهم تعبر عن دموع القلوب والعيون عند رحيل الرجل الذي قال عن يوم رحيله (اليوم: كان من الوارد جدا أن يكون موعد دفني هو الأحد ٣ أبريل بعد صلاة الظهر.

إذن كان هذا هو الموت.. بدا لي بسيطا مختصرا وسريعا.. بهذه البساطة.. أنت هنا.. أنت لم تعد هنا والأغرب أنني لم أر أي شيء من تجربة الدنو من الموت التي كتبت عنها مرارا.. تذكرت مقولة ساخرة قديمة هي أن عزاءك الوحيد إذا مت بعد

الخامسة والأربعين أنك لم تمت شابا!)[1]
واتسعت عينا الفتي دهشة وكأنما يشاهد فيلما أسطوريا من نسج خيال أبيه ثم سال أباه في براءة معهودة:
– هل يمكن أن يتنبأ أحد بيوم وفاته؟
فقال سامح وقد سيطر عليه شعور غامض بالرهبة:
– لقد وصف الرجل تشييع جنازته أيضا يا ابني عندما قال "ستكون مشاهد جنازتي جميلة ومؤثرة لكني لن أراها للأسف برغم أنني سأحضرها بالتأكيد"
فقال محمود وقد غشيت وجهه سحابة من الحزن:
– هل تصل الدرجة بإنسان أن يشعر بكل هذا يا أبي؟ كيف تصفو له في الحياة لذة بعد أن يري أمامه لحظة نهايته ومتي تحين؟
فقال سامح وقد رتب على كتف ابنه حتى لا يترك الفتي لأحزانه بعد رأى شحوبا قد بدأ يسري في قسمات وجه الفتي:
– ليس كل البشر يا ولدي الحبيب لكن بعض أصحاب الفكر ربما يكون لديهم آفاق رحبة من سعة الخيال واستشراف الغد القريب وربما تكون تلك اللحظة هي عبارة عن فيض من النور منحته إرادة الله لعقل الرجل فتنبأ بما قد يحدث في مقبل الأيام
واتسعت عينا الفتي دهشة قبل أن يسأل أباه في لهفة:
– ماذا تعني كلمة استشراف يا أبي؟
فقال سامح وهو يتنهد مبتسما:

(١) رواية قهوة باليورانيوم للكاتب الدكتور "أحمد خالد توفيق" الصفحة ٦٢من الرواية

– لإنها تعني يا ابني الحبيب نظرة الشخص إلى شيء بعيد من مكان مرتفع عنه بمسافة كبيرة فيمكنه عند ذلك رؤية الشيء كاملا مهما كان بعيدا أو كان حجمه كبيرا

فابتسم الفتي شاكرا لأبيه إجابة سؤاله وقال في مكر:

– هل تسمح لي بسؤال آخر قبل أن أنام؟

فقال سامح:

– تفضل يا صغيري وسوف أجيبك

فقال الفتي:

– كيف تنبأ الرجل بموته؟

فقال سامح بعد أن نظر إلى الأرض وطال صمته:

– لا أعلم، ولكن ربما تأثر بأحد أبطال رواياته فتحدث بلسانه كما لو كان يتقمص شخصيته بشكل كامل

وضحك الفتي معقبا على حديث أبيه:

– وما معني يتقمص؟

فنظر سامح يمينا ويسارا ثم ابتسم وهو يطلق زفيرا:

سوف أجيبك ولكني أرجوك أن تترك لي الفرصة لأنام قليلا

ثم اقترب من الفتي مقبلا جبينه وقال:

– يتقمص معناها عند أهل وصانعي الدراما والفن والتمثيل يحيا بروح الشخصية التي يمثل دورها على الشاشة أو يؤدي دورها على المسرح، وكل الكتاب العظماء تنتابهم أحيانا نوبات تقمص

ثم وضع يده على فم الفتي وقال ضاحكا:

– سوف أذهب إلى فراشي قبل أن تقول ماذا تعني تنتابهم

فضحك الفتي محمود حتى تورد خديه وقال:
– حقا يا أبي نسيت أن أسالك، ماذا تعني تنتابهم؟
فقال سامح:
تعني تصيبهم لفترة يا ابني وحبيبي
تم حك سامح طرف أنفه بأنامله مبتسما وقال:
– أراك على خير في الصباح، ولي معك حديث طويل حول رجل أتمني أن أراك مثله ليحبك الناس كما أحبوه ولا أريدك كاتبا على وجه التحديد، ولكني أريدك ناجحا في أي مجال، فكل ناجح محبوب وإن كثر عدد أعداؤه، وليس كل كاتب محبوب حتى ولو أعجب بفكره الكثير من القراء في كل بقاع الدنيا
فضحك الفتي وقال فجأة:
لذلك كان الكاتب في عهد الفراعنة قريبا من الحاكم أليس كذلك يا أبي؟
فقال سامح وقد استبدت به الدهشة:
– نعم يا محمود، لأن الحكام وأهل السلطة كانوا يقدرون قيمة العلم والعلماء حتى في عصر الدولة الإسلامية والدويلات التي تلت زمن الخلفاء الراشدين يا ولدي الحبيب
وقال الفتي وعلي وجهه نظرة أقرب إلى التوسل والاستعطاف رغم أنه كان مبتسما:
– أبي لو تسمح لي بسؤال حائر، هل الكتاب والأدباء لهم مكانتهم في مصر؟

فقال الرجل مبتسما وقد اتسعت حدقتاه دهشة من إصرار الفتي الإجابة على تلك الأسئلة الكثيرة:

– كانت لهم مكانتهم في عصر الدولة العثمانية وحتى عهد محمد على باشا لاسيما مشايخ وعلماء الأزهر الشريف

وضحك الفتي قائلا في مكر:

– والآن يا أبي؟

فقال سامح ساخرا وهو يلوذ بالفرار من حصار الفتي له:

– الآن سأذهب إلى سريري لأنام أراك في الصباح بكل خير صحبتك عناية الله

ثم مط شفتيه متعجبا من أسئلة الفتي وقال مبتسما:

– لو طالت غيبتي في عملي اقرأ للعراب كتابا وستعرف لماذا أحبه الناس وليكن مثلا رواية "في ممر الفئران" أو سلسلة "الآن نفتح الصندوق" فقد جمعت معظم ما كتبه العراب في مكتبتي الخاصة، اطلب من أختك هدير أن تحضر لك ما تشاء من الكتب حتى أعود، ولكن دعني أنام يا حبيبي ولنكمل حديثنا قريبا

وانطلق سامح إلى فراشه بعد أن أطفأ مصباح غرفة الفتي وأغلق الباب خلفه ليأوي إلى فراشه وحيدا، ثم مضت عدة أيام قبل عودة زوجته من غيبتها التي طالت عند أبيها، ولم يعد الرجل يشغل نفسه بشيء سوي كيف يدبر المزيد من الأموال تحسبا لما قد يطرأ فجأة من ظروف تحتاج إلى المزيد من المال، فبدأ يكثف جهوده في البحث عن حياة العراب والكتابة عن

الرجل في شكل مقالات أسبوعية، وكان يرسلها إلى مجلات وصحف عربية بالخليج العربي وبدأت تلك الجهود تؤتي ثمارها عندما فوجئ بعدة أظرفة مغلفة تحتوي على شيكات بمبالغ مالية بالعملات الصعبة، وعندما ذهب إلى أحد البنوك وأمسك بين يديه بأول مبلغ مالي، شعر بأن قلبه يزغرد فرحا وأن الدنيا كلها تغني من حوله لحن الأمل وصار العراب بالنسبة لسامح أيقونة النجاح وطوق النجاة الأخير، لكنه تذكر ذات يوم كيف تنبأ الرجل بوفاته ووصف مشهد تشييع جنازته فاعتصر الألم قلبه ورفع عيناه إلى السماء شاكرا أن استطاع الإفلات من حصار ابنه بالأسئلة حول الرجل فلم يشأ سامح أن يغرس في قلب الفتي الموجوع لحظة حزن ربما تتحول إلى سيل من الدموع إذا قرأ الفتي للرجل، فيُربي هذا السيل حديقة من الأشواك في صدر الفتي كربوة أينعت أزهارها الدموع فلا تطرح إلا ثمارا تدمي يد من بلمسها وأوراق تؤلم من يستظل بها أو يقترب منها، فأشفق سامح على نفسه وابنه من مرارة الاعتراف بأنه يري أن تدوين العراب ليوم وفاته وكيف سيكون ربما لأنه شعر بدنو الأجل عندما علم أنه قد أدي رسالته في الحياة عندما نجح في توطيد العلاقة بين قارئ وكتاب، ليخلق بمداد كلماته التي سطرتها أنامله فوق صفحات كتبه وبين أوراقه رباط لا يزول بين صورة في الخيال وأمل أو حلم أو أمنية أو قضية لمست جرح أو ساهمت في شفائه فحفرت للعراب مكانا في قلوب عشاقه لن يزول ما دام للكلمة قارئ وللقلم عاشق ليعبر به عن الألم

والأمل ويعبر بالغارقين في بحار الحيرة إلى شاطئ النجاة بفكر يستمد قوته من تراكم التجارب والخبرات الإنسانية على مر العصور، وعاد سامح إلى بيته وقد بدأت بوادر النعم، وبعد مرور عدة أيام دقت الفرحة باب قلب سامح عندما فوجئ في صباح أحد الأيام باتصال هاتفي من أخيه عادل وأبلغه الرجل أن ابنته الوحيدة سوف يعقد قرانها خلال أسبوعين فتهلل وجه سامح وقال مبتسما وهو يحاول النهوض من فراشه:

– زواج مبارك يا شقيقي ولم أكن أحتاج لمن يذكرني

فمازحه أخاه قائلا:

– أحببت أن أسمع صوتك ليكون يومي سعيدا ولأطمئن على محمود

فقال سامح مازحا:

– محمود بخير

ثم استطرد في دعابة

– سيكون أفضل مني ومنك

وانفجر عادل ضاحكا وهو يمازح سامح:

– أريده سيد الرجال في العالم، كله فهو ابني كما هو ابنك

وعندها فقط أنهي سامح اتصاله بأخيه مهنئا بقران ابنته ثم قال في نفسه:

– هكذا الأيام يوما لك ويوما عليك

ثم ترك فراشه ليبدأ يومه قبل أن يغادر إلى عمله ولم يكن يشغله إلا التهيؤ لحفل الزفاف الوشيك، ومضت الأيام حتى جاء مساء

الخميس وكان سامح قد أعد لأخيه عدة مفاجآت كان أولها استئجار قاعة زفاف فخمة بأرقى موقع بالمدينة، والاتفاق مع فرقة موسيقية لإحياء حفل الزفاف واستئجار سيارات لتقوم بنقل ضيوف الحفل والعروسين من بيت أخيه إلى قاعة الزفاف ثم تعود السيارات مع العروسان إلى عش الزوجية، وبعدها كان سامح قد اتفق مع فريق من عازفي المزمار وبعض من يجيدون الرقص فوق ظهور الجياد وراقصي التنورة لتقديم فقرات في بداية حفل الزفاف عندما يدخل العروسان إلى قاعة الزفاف، وعندما حانت تلك اللحظة وانتصف الليل تخلي سامح عن هدوئه وانطوائيته الفطرية، وظهر في الحفل مرتديا جلبابا ريفيا وعمامة بيضاء وحذاء لامع، ثم امسك بعصا وشارك والد العروس وأصدقائه رقصة جماعية على نغمات المزمار ودقات الطبول، فكان في تلك اللحظة يحاول جاهدا رد الجميل لآخيه الذي لم يتخل عنه في مأزق الفتي محمود أثناء الجراحة التي أجراها منذ فترة قصيرة، ولم يكتفي الرجل بهذا لكنه عندما صافح ابنة أخيه صنع عقدا من الأوراق المالية ذات الفئات العالية وأحاط به عنق الفتاة، ثم أخرج علبة أنيقة مبطنة بالحرير فأخرج منها سلسلة ذهبية يتدلى منها قرصا مستديرا من الذهب الخالص وأحاط بتلك السلسلة الذهبية عنق الفتاة ثم قبل جبينها فاغرورقت عينا الفتاة بالدموع وهمست بصوت متحشرج لم يكن الرجل يسمعه إلا بصعوبة بالغة بسبب ما يحيط به من صخب وضجيج لكنه استطاع أن يتبين كلمات الفتاة عندما قالت في صوت منخفض:

– بارك الله لنا فيك يا عمي، والعقبى لابنك محمود
وابتسم سامح وملأت الفرحة قسمات وجهه، ثم نهض مقبلا العروس في منتصف جبينها داعيا الله أن يكتب لها السعادة وصافح زوجها، ثم مكث قليلا بين الجموع ولم يغب عن عيناه طفله الذي لم يكن يتحرك إلا قليلا وقد بقي بصحبة زوجة أبيه، ومضت ساعة قبل انفضاض الجمع الحاشد التي تبع أغلبهم العروسان إلى عش الزوجية وعاد سامح إلى شقته بصحبة ولده وابنته وزوجته وكانت ألوية السعادة ترفرف في سماء قلبه بجناحين من النور ابتهاجا بزفاف ابنة أخيه وعاد في صبيحة اليوم التالي إلى عمله وحياته ولم يكن يكدر صفو حياته شيئا إلا ذلك الحنين الغامض إلى ذكرياته مع زوجته الأولى عندما ظل طيف رانيا يحاصره في نومه ويقظته عقب عودته من حفل الزفاف لعدة أيام كان خلالها قد بدا يتنفس الصعداء متناسيا لفترة تلك السحب السوداء من الهموم والمتاعب التي تلبدت بها سماء أيامه قبل مرض الابن بعدة شهور وحتى ليلة الزفاف التي ما أن انقضت حتى عادت والدة سامح إلى بيتها القديم ومعها الجارة الحبيبة أم فاتن التي كانت تشملها بالرعاية فلا يفترقان أبدا إلا عند النوم

الفصل السابع

لم تكن الأيام التي ألقت بعبير فرحة طارئة على حياة سامح كريمة معه حتى النهاية، فلم تمض عدة أسابيع حتى عادت المشكلات تحاصر الرجل من جديد لأن رئيسه في العمل كانت قد وصلت إليه عدة شكاوي من مجهولين تتهم سامح بالتقصير في عمله وبأنه صاحب آراء منحازة إلى تيارات فكرية يتعارض منهجها الفكري مع التوجهات العامة في الدولة، ولكن الرجل كان يتغاضى عن كثير حتى فوجئ باتصال من رئيس الشركة يطلب صورة من ملف الخدمة الخاص بالسيد سامح درويش، فأصيب الرجل الذي تلقي تلك المكالمة الهاتفية بقدر من الارتباك وأصابته حالة من القلق فيما يتعلق بمستقبل سامح الوظيفي فأراد أن يخلق من هذا المأزق مخرج آمن لا يتسبب في فصل أو نقل سامح من عمله، فما كان منه إلا أن أبلغه في اتصال هاتفي في مساء أحد الأيام بأنه يريد مقابلته في صباح اليوم التالي بعيدا عن إطار العمل، ولم يبدي سامح دهشة من جراء تصرف الرجل، لكنه وافق دون قيد أو شرط، ثم توجه إلى عمله في صباح اليوم التالي وقبل أن يصل إلى مقر عمله أجري اتصالا هاتفيا برئيس قسم الحسابات وكان أقرب أصدقاء العمل إليه وهو الرجل الذي تحدث بكل وداعة قائلا:

– انتظرني خارج الشركة يا سامح فما هي إلا دقائق معدودة

وسوف أكون معك
ولم تمض سوي خمسة دقائق ونفذ الرجل وعده، وعندما نظر سامح إلى يساره وجد على وجه الرجل ابتسامة مريبة تدعوا إلى القلق والشك فيما يفكر الرجل في مناقشته مع زميله، وعندما انطلق سامح بسيارته برفقة الرجل لم يكن يتوقع ما سوف يحدث بعد هذا اللقاء الذي انقلبت بعده حياته رأسا على عقب، حيث بدأ الرجل حديثه بتوجيه النصائح له بمحاولة الانضباط في عمله قدر جهده فيما سوف يلي هذا اللقاء من أيام وحتى لا يجبر سامح على ترك عمله صراحة، ثم غمرت وجه الرجل ابتسامة خبيثة طارئة وأطال النظر إلى عيني سامح ثم تنهد قائلا وهو لا يتوقع رد فعل سامح:
- ألف مبروك يا صديقي لقد تم ترقيتك إلى رئيس وحدة مشتريات بالمؤسسة الدولية للتجارة
وانعقد لسان سامح عن النطق واتسعت عيناه دهشة ثم ساد الصمت لثواني قطعتها صيحته عندما هب مستنكرا وهو يصرخ في غضب عارم:
- مستحيل
ثم زفر في غضب شديد وأشعل سيجارة كاد يلتهمها وأطلق زفيرا حارقا قبل أن يضغط بأسنانه على باطن شفته السفلي فأشار إليه الرجل بالجلوس وهو يقول في توسل:
- اهدأ يا صديقي
ثم قال وعلي وجهه دلائل الدهشة:

– لقد أبلغتك قرار ترقية ولم أبلغك بإقالتك أو صدور أمر باعتقالك لا قدر الله

فقال سامح وقد خيم الحزن على وجهه وجف حلقه:

– كلاهما عندي سواء والموت أهون من أن أقبل بهذا الهوان

فصرخ الرجل مندهشا وقد أفزعه رد فعل سامح عند تلقيه الخبر:

– أي هوان هذا؟ هل قلت لك أنك سوف تباع في سوق النخاسة؟

فصرخ الرجل ولم يتمالك نفسه:

– بيع العبد الجاهل في مجتمع الجاهلية أراه أخف وطأة من بيع الإنسان المثقف ضميره في عالم لا يريد ممن يقترب منه إلا نفاقا ورياء

فضرب الرجل كفا بكف وهو يبتسم مندهشا ويهز رأسه متعجبا من منطق زميله في الحديث:

– أخبرني يا زميلي العزيز بأي عقل جئت إلى هذه الدنيا؟ وهل يتكرر أمثالك على كوكبنا هذا؟

فقال سامح في لهجة حاسمة:

– جئت بعقل أدرك بالعلم وبالإيمان أن الله رقيبا وقائما على كل نفس بما كسبت وأخشى أن أكون واحد من أولئك الذين قال الله في شأنهم (والمنافقون في الدرك الأسفل من النار) ﷻ ولهذا يا أستاذي، لن أبيع آخرتي الباقية بمتاع زائل ومال لا خير فيه ولا بركة لأنه لا يجوز أن تكشف امرأة جسدها لتآكل أو يبيع رجل نفسه وضميره ليجد ما ينفقه

ثم اخرج قلما من جيب معطفه وأشار به إلى الرجل قائلا:
– لقد أقسم الله بهذا في كتابه العزيز حين قال (ن والقلم وما يسطرون) ﷻ، ألا يريدون مني أن أكتب في شأن نائب البرلمان الذي اغتصب أرضي وظلم أهل قريتي قصائد مدح في كرم أخلاقه وأن أهتف له في الانتخابات وأدعو الناس إلى منح أصواتهم له لمجرد أنه شريك في شركتنا المشئومة برأس ماله الملوث من الرشوة والتجارة الغير مشروعة؟ وأنا أحترم قلمي ولساني ولن أبيع ضميري لأحد أو أخط به إلا ما ترتاح له نفسي وأرضى عنه
ثم قال مودعا وهو لا يكترث بنظرات الدهشة التي ألجمت لسان الرجل عن الحديث:
– اعتبرني في أجازة مفتوحة من الآن وربما تصل إليك استقالتي قريبا
ثم أشار إلى الرجل رافعا يده بالتحية وهو يصيح قائلا في غضب عارم:
– دمت في رعاية الله وأمنه، ولكني استأذنك في الرحيل فلا أستطيع البقاء هنا وقتا أطول
وانصرف سامح تاركا ذلك العجوز الأصلع غارقا في بحر من الحيرة والدهشة لكنه ودع سامح بنظرات ملؤها الإشفاق والحسرة فلا يعلم سامح ما تخبئه له الأقدار في جعبتها لكن الرجل رمق زميله بنظرة وداع لا تخلو من إعجاب بقوة ثبات سامح على مبادئه ودفاعه عن احترامه لأخلاقه وأفكاره التي

يعمل بها وتربى عليها حتى النهاية ولو خسر في سبيل ذلك كل ما لديه حتى عمله ذلك الحصن الأخير الذي يحتمي الرجل بجدرانه الحصينة من ويلات الفقر والبطالة والعودة إلى التسكع في دروب الحياة بحثا عن عمل جديد كما حدث منذ أن تخرج سامح من الجامعة في بدايات مرحلة الشباب، وعاد سامح إلى بيته كسير الفؤاد، وعندما أغلق الباب خلفه فوجئ بزوجته تنتظره بلهفة، لكنه قطع عليها سبل النقاش حول أي شيء يتعلق به بعد أن رأت وجهه شديد الشحوب كوجوه الموتى، و قبل أن تبادره بالسؤال عن السبب فيما هو عليه من تغير مفزع أشار إليها هامسا في هدوء:

– لا أريد حديثا حول أي أمر مهما كان خطره

ثم قال في نبرات أقرب إلى التوسل:

– دعيني وشأني، فأنا بخير ولم يحدث ما يستدعي منك القلق أو التوتر، ولكني سأبقي داخل مكتبي لبعض الوقت

ثم تحاشي النظر إلى عينيها ومضي إلى حجرة مكتبه، وبعد أن أغلق الباب خلفه تكوم على مقعده الرابض خلف مكتبة منذ سنوات طويلة وأطلق لخياله العنان سابحا في أفكار سوداء تزاحمت في عقله واشتد لها أنين الروح وتوجع القلب حتى شعر بأن فوق كتفيه جبلين عظيمين يكبلان كتفيه ويوثقان يديه بأغلال من حديد، كأنما اقتيد بفعل الظروف إلى سجن عميق في باطن الأرض، سميك الحوائط، بارد الجدران، لا يسمع فيه إلا صوت قلبه الذي ينوح باحثا عن مغيث فلا يُغاث، وحاول

سامح أن يخرج من بوتقة أحزانه ومخاوفه بشأن ما يتعلق بعمله ومصير أبنائه، فكان أمامه أحد الاختيارات التي كان أهمهما اختياران كلاهما في مرارة الصبار، إما أن يقبل بالهوان ويحيا منافقا مكروها من الجميع ولا يرضي حتى عن نفسه ويشعر كما راوده ذلك الشعور في طريق عودته إلى بيته بأنه ممن حقت عليهم اللعنة ووجبت له، وإما أن يتجنب كل هذا ويبحث عن عمل جديد، ولكنه حتى إذا قبل بالبديل الثاني فكيف له أن يدبر نفقاته وما يتطلبه علاج ابنه وما يقوم بإرساله إلى أمه وأخته من أموال حتى يتسنى له الحصول على عمل بديل وتقاضي أجر مناسب من خلاله.

شعر الرجل بأن الأحزان تضع قلبه وعقله بين مطرقة القلق على المستقبل وسندان الكرامة التي لا يمكنه أن يفرط فيها فيتحول في نظر نفسه إلى خنزير من آكلي الجيف كما كان يصف المنافقين من أولئك الذين صنعت منهم الأضواء رموز في مجتمع رجال المال والتجارة، ذلك الإطار القذر في عيون سامح إلى الحد الذي جعله يصف بعض زملاء المهنة بجامعي القمامة الذي يحقق ثراء مما يمطر الناس به من كلمات مقيتة تفوح منها رائحة النفاق، حاول سامح قدر جهده أن يخرج من تلك الحالة السيئة التي كانت تحاصره فخرج من بيته مستقلا سيارته ولا يدري إلى أين يذهب، لكنه قبل مغادرة البيت ترك رسالة لزوجته بها كلمة اعتذار وبعضا من المال وألقى بعد أن ترك رسالته على طاولة تتوسط الحجرة الرئيسية بشقته نظرة على ابنه

وطفلته الصغيرة فوجدهما نائمين، وغادر المنزل مستقلا سيارته مبتعدا إلى حيث توقفت سيارته قريبا من منطقة ماسبيرو بوسط القاهرة، فغادر السيارة متجها إلى مكان قريب من النهر، واختار ركنا شديد الهدوء وجلس متتبعا ما يفعله المارة، ولم يكن بحالة نفسية تسمح له بأن يمعن النظر أو يعمل العقل فيما يري أو يسمع من تصرفات الذاهبون والآيبون، لكنه ظل غارقا في خياله ولم يكن يري على صفحة العقل سوي طيف زوجته الراحلة رانيا عبد الفضيل الذي وجد نفسه يهمس إليها بغير حديث:

– ماذا أفعل يا رانيا؟ ليتك كنت معي لأرى من حديثك وحكمتك ما يرشدني إلى ما يجب أن أفعل، أبنائك أمانة في رقبتي لن أفرط فيها ما حييت، ولكن الابتلاء قاسٍ والاختيار صعب، ولكن سامح تنهد بعد أن اغرورقت عيناه بالدموع قائلا بعد أن تحركت شفتاه بكلمات كانت كالهمسات فلم يسمع صوت شفتيه سوي نفسه:

– ماذا أفعل يا رانيا؟ لقد أوجعني غيابك واشتقت لحديثنا وأيامنا، لقد انتزعك الموت من دنياي فغرس بقلبي أشواكا لا زالت تنزف ولا يندمل جرحها بقلبي حتى ألقاك

وصدحت المآذن القريبة بابتهالات تسبق آذان الفجر فنظر سامح إلى السماء مرددا مع المبتهل الشيخ نصر الدين طوبار قوله:

(فإذا دجى ليلي وطال ظلامه

طال ظلامه

طال ظلامه.
ناديت يا رب
فكنت كنت كنت ضيائي)
وفارقت عينا سامح دمعتان فقام مرددا:
– يا رب اللهم يا مفرج الهم وكاشف الغم فرج عني ما أنا فيه
وتحرك سامح إلى مسجد قريب فصلي ركعتي الفجر في جماعة ثم عاد إلى نفس المكان، وظل في مكانه حتى أشرقت الشمس فعاد إلى بيته وقد غلبه النعاس ولم يقاوم النوم فآوي إلى فراشه وراح يغط في سبات عميق بعد أن هدأت نفسه عندما فرغ من الصلاة والدعاء ولم يستيقظ إلا عند الظهيرة، ولم يكن أطفاله قد عادوا من المدرسة فتناول إفطارا خفيفا ثم خرج بعد أن قبل جبين زوجته متوجها إلى صديقه جمال عبد الرحمن الذي لم يلتقي به منذ أن ألمت به نزلة البرد الأخيرة فجعلته يأوي إلى فراشه عدة أيام، وكان لقاء جمال الذي لا يخلو من المرح والفكاهة ضرورة في مثل تلك الحالة التي أحاطت بقلب سامح وأيضا لأنه يثق في رجاحة عقل جمال ويستشيره في كل صغيرة وكبيرة من شئونه العامة والخاصة، وقد قطع الطريق إليه في صمت تام ورسمت على وجهه علامات الكآبة والضجر من كل ما يعاني منه من متاعب وأوجاع حتى طرق باب بيت صديقه فقابله بابتسامة مرحة بددت كل أحزانه كريح عاصف هب على طريق تكسوه الرمال أو كشمس يوم حار أشرقت على جليد فانصهر فما أن انتهت طرقات سامح على باب شقة صديقه

حتى انطلق جمال في شوق ليستقبل ضيفه الغائب وعندما فوجئ بالرجل يقف أمامه هتف به صارخا في مرح:
– هكذا أنت يا صديقي تختفي كثيرا حتى إذا أوسعتك الدنيا ضربا وركلا تقذف بك الريح إلى بيتي
وارتمي سامح في أحضانه مبتسما قبل أن يتأوه قائلا:
– نعم يا صديقي وما أتيت إليك إلا بعد أن صفعتني الدنيا على مؤخرة عنقي أيضا
ثم انطلق الرجل إلى داخل شقة جمال يسأله في لهفة:
– كيف حالك وما هي أخبار مزرعتك وكيف حال أخيك
فقال جمال وهو يغالب نوبة ضحك كادت تنتابه كعادته كلما التقي سامح أو جمع بينهما حديث:
– تمهل يا أخي والتقط أنفاسك أولا فلم تقم القيامة بعد
ثم تنهد جمال بعمق وقال فجأة:
– أخبرني أولا، لماذا لم تدعوني إلى زفاف ابنة أخيك وكيف حال ابنك الآن؟
فقال سامح:
– عذرا لقد نسيت في غمرة انشغالي بترتيبات حفل الزفاف أن أتواصل مع أحد، فالتمس لي العذر يا صديقي ولا تكن جلادا فإني لست بخير
ثم نظر إلى الأرض وقد تغير لون وجهه فقال جمال وقد ساوره القلق:
– ماذا بك يا صديقي؟ أخبرني بحق صداقتنا

وتمتم سامح هامسا في نبرات توحي بالأسى والانكسار:
– ربما أترك عملي بالشركة قريبا وقد أضطر إلى البحث عن بديل
فقال جمال:
– ولماذا تفعل هذا يا صديقي وهل تعتقد أن الحصول على عمل لائق وبدخل معقول في بلادنا حاليا أمر يسير؟
ثم اتسعت عينا جمال دهشة وهو يصيح في ذهول:
– ألا تري ما نحن عليه من تردي وما وصلت إليه الأمور؟
ثم هدأت عباراته فقال ناصحا صديقه:
– زن الأمور قبل أن تتورط في فعل تندم عليه عندما لا يفيد الندم
فقال سامح وهو يكاد يفجر قنبلة في وجه صديقه:
– هناك تكليف رسمي من إدارة الشركة بأن أتولي الإشراف على قسم المشتريات بالمؤسسة العربية للتصدير
– أي أن أكون مسئولا عن التعامل مع بعض رجال الأعمال لاسيما عضو مجلس النواب برهان زناتي وما يتعلق به وبشركته ومزارعه من أعمال وما يخص شركائه وأنت تعلم موقفي
فقال جمال معاتبا في لهجة ماكرة:
– يا صديقي اجعل العقل سيد الموقف، ولا تدع مشكلة مع أحد أعضاء البرلمان تؤثر على نظرتك له كمكان بغض البصر عما يدور في عقلك تجاه هذا المكان
فصرخ سامح وقد استبد به الغيظ:

– ألا تري ماذا يفعل مجلس النواب بمن ينوب عنهم من أبناء الشعب
ثم انفجر ضاحكا في مرارة وهو يضرب كفا بكف قائلا:
– أستغفر الله العظيم، أين يحدث هذا في أي مكان على سطح الأرض؟
وتنهد جمال مبتسما ثم قال في برود قاتل:
– ماذا يحدث يا صديقي؟
صرخ سامح معارضا:
– لن أكون خادما لمصالح رجل يمثل أهلي وأهل دائرته في مكان يلتقي فيه من يطلقون على أنفسهم النخبة، وهم لا يخدمون بقراراتهم إلا مصالح الأثرياء وليس الجموع التي منحتهم ثقتها قبل الأصوات ونزلوا إلى لجان الاقتراع ليختاروا من يدافع عن مصالحهم ويتصدى لمشكلاتهم، وليس فقط ليخدم أولئك الأعضاء مصالح الأثرياء على حساب الفقراء، فلن أكون أسيرا لسجن لقمة العيش لأنافق من يخدمون الكبار من رجال الأعمال وذوي المال والنفوذ وبعض رجال الحكومة على حساب حياة الكادحين والفقراء ومستقبلهم
وهربا من عنف الحديث مال جمال برأسه إلى الأرض والتزم الصمت قليلا، ثم أخذ مسار الحديث إلى واد آخر فقال مازحا:
– عندي اقتراح يريحك من همومك إلى الأبد وربما من حياتك نفسها
واتسعت عينا سامح دهشة وهو يبتسم قبل أن يقول ساخرا:

– أخبرني يا فيلسوف العهد الغابر ماذا برأسك؟
فقال جمال مبتسما وهو يشبك ساعديه إمام صدره بعد أن تنهد بعمق:
– اذهب إلى مجلس النواب ثم انزع عنك ثيابك كالمجنون واقتل برهان زناتي أو احتضنه وأنت مرتديا أحد الأحزمة الناسفة كما نري في أفلام السينما
فقال سامح وقد هدأت عاصفة غضبه وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة:
– لا تذكرني بما شعرت به عندما أبلغني مدير الشركة بالخبر المشئوم، لقد كان حالي أقرب إلى حال من يستحق الرثاء حتى كدت أبكي، فلن أبيع ضميري لإرضاء واحدا ممن باع أغلبهم دينه من أجل أن يحقق الثراء والسلطة والسطوة حتى لو خالفت أطماعهم شرع الله وعدله بين خلقه فظلموا البسطاء وتلذذوا بأنينهم واستهانوا بدموعهم وفقرهم ومرضهم
فتنهد جمال وقد بدا على وجهه التأثر فقال محذرا وهو يلوح بأصابعه:
لا تتسرع في قراراتك فتدمر مستقبل أولادك
فربت سامح على كتف جمال وقد شق طيف ابتسامة عابر طريقه إلى وجهه قائلا:
– سوف أكتب كل ما دار بحياتي وأحولها إلى رواية
ثم انفجر ضاحكا وهو يستطرد قائلا
– لعلها تفوز بجائزة نوبل في الأدب

وأشعل سامح سيجارة تصاعدت خيوط دخانها الفضي قبل أن يستطرد قائلا:
– أريد حلا يوفر لي مصدر بديل للدخل فلم أعد أُطيق البقاء على هذه الحال أكثر من ذلك
فتنهد جمال بعمق واتسعت عيناه دهشة قبل أن يقول في لهجة تنم عن ارتياح بالغ:
– ماذا لو كتبت كتابا عن حياة العراب؟
فقال سامح في نبرات هامسة توحي بالحيرة والدهشة:
– وماذا أعرف عن حياته سوي أنه أحد أشهر الكتاب في مصر والعالم العربي؟
فقال جمال في حماس شديد:
– لا تحزن فنجوم الأدب والفن مصادر المعلومات عنهم لا تنفذ وليست قليلة
ونظر سامح إلى الأرض وقال في هدوء قبل أن ينصرف مودعا صديقه:
– بالتأكيد لن يترك الله لي مأزقا دون أن يكون له من أبواب الفرج الكثير
ثم مضي إلى بيته تاركا جمال يسبح في بحار الحيرة والقلق بعد أن نظر إلى خطواته الواثقة كأنه لم يرتكب جريمة في حق نفسه وأولاده، إلا أنه رأى في عينيه شعور بالثقة وعدم الانكسار، فمال جمال برأسه إلى الأرض وقال في نبرات تقطر بالحزن الممزوج بالدهشة :

– نادر في هدا الزمان من هو مثلك يا سامح، حين يضيع من بين يديه فرصة ثمينة كهذه ربما تقفز به في أقصر وقت ممكن لتضعه في مصاف السادة وعليه القوم

ولم تمض إلا ساعة حتى وصل سامح إلى قريته الصغيرة حيث كان ينوي زيارة أمه والاطمئنان عليها قبل لقاء أخيه ليفاجئ بما لم يكن يتوقعه بسبب ما شهدته حياته من أحداث متتابعة طيلة الفترة الماضية ولكن زيارته الأخيرة للقرية كانت قد تركت في حياته بصمة لن تمحوها الأيام

الفصل الثامن

عند الرابعة عصرا وصل سامح بسيارته إلى مشارف القرية التي ولد وتربي فيها ولكنه رأى فيها أشياء أثارت في نفسه شجون ما كانت نفسه تحتمل أن تعاني من مثلها في تلك الفترة المضطربة من حياته، فكانت قد لاحت له على بعد أمتار جموع من الناس والأطفال يتجمعون حول ذبائح تنحر ودماء تسيل فيغمس الأطفال أيديهم في دماء الذبائح ثم يلطخون بها الجدران والأبواب والنوافذ وهياكل السيارات المارة والتي أعاقت الجموع حركة سيرها وازدحمت الشوارع بالنساء والفلاحين من ذوي العمائم البيضاء وكانت الطرقات تموج بالأطفال مما استرعي انتباه الرجل فأخرج رأسه من نافذة السيارة ليستوقف شخص مستفسرا عما يري عندما صاح به قائلا:

– أخبرني يا رجل ما هذا الضجيج والصخب؟ أرى البلدة كأنها تشهد عيد الأضحى من جديد

وهز الفتي الثلاثيني فارع الطويل أسمر البشرة رأسه ساخرا:

– لا أضحي ولا فطر، كل ما الأمر أن ابن الحاج راضي شقيق برهان بيه عضو مجلس النواب قد تخرج من كلية الشرطة وأصبح ضابطا بقسم شرطة البندر، وعائلته تقيم اليوم احتفالا سوف يحضره عدد كبير من الأعيان

فابتسم سامح للفتي شاكرا وواصل تحركه البطيء كأنه يشق

الأسفلت وصولا إلى باطن الأرض، وربما تخايل لعينيه أن ذلك أهون من اختراق تلك الجموع رغم ضغطه المتكرر على صافرة التنبيه حتى شعر هو نفسه بالضيق والضجر، ناهيك عن الصداع الذي جعله يكره تلك الساعة التي قرر فيها أن يزور القرية لكنه همس إلى نفسه معاتبا:

– دعهم يفرحون يا سامح، ربما كان حلم أحدهم كسائر الفقراء في بلادنا أن يظفر بقطعة من اللحم فيعود إليه الشعور بفرحة العيد بعد أن صارت أعياد المساكين هي تلك الساعة التي يجدون فيها قوت يومهم حتى ولو منحهم ذلك القوت من يسرق أحلامهم وحاضرهم ومستقبلهم ثم يمن عليهم بالفتات مما سقط من بين أصابعه بعد أن امتلأت البطون وسمنت الرقاب من سرقة حق الفقراء في حياة آدمية يضحي فيها البسطاء بحياتهم ودمائهم ليثري هؤلاء الطغاة وليكون ثمن ثرائهم من دماء الفقراء وأموالهم وما لهم من حقوق في بلاد لا حقوق فيها إلا لصاحب مال أو جاه حتى ولو كان لص أو مرتشي أو فاسد، فيكفيه أن يغدق على أولئك الجياع ببعض من سقط المتاع ليهللون له ويسبحون بحمده آناء الليل وأطراف النهار

ثم مط سامح شفتيه أسفا وهو يهز رأسه بعد أن طغى عليه شعور عارم بالخزي والأسى، فبصق على الأرض في حنق ثم انطلق متجاوزا الجموع حتى وصل أخيرا إلى بيت أبيه فغادر السيارة وعيناه تدوران في أنحاء متفرقة متحسرا على ما وصل إليه حال الناس، فما كاد ينسي تلك الحرب التي دارت بينه

وبين المدعو برهان والذي يعرفه أهل القرية باسم سيادة النائب وينادونه في كل تجمع حاشد "برهان بيه"، كان يري في هذا الرجل أخطبوط ذي أذرع تمتد إلى حقوق الناس فتستولي عليها وإلى أموالهم فتسلبها لكنه على جانب آخر ينفق على مساجد القرية ويتبرع بالمال لمكتب تحفيظ القران الكريم وكُتاب القرية الملحق بالمسجد الكبير، ولم يضيع سامح الكثير من الوقت في هذا، لكنه انطلق إلى بيت أبيه فوجد الباب موصدا للمرة الأولى وارتفع حاجباه دهشة ثم قال في نفسه:

– أين أمي وأختي وبناتها؟ لم يحدث أبدا أن تغيب الجميع هكذا مرة واحدة وأُغلق الباب في وجه زائر، هل مرضت أمي لا قدر الله؟ وأين عادل مما يحدث؟

ثم توجه على الفور إلى بيت الجارة الطيبة التي مكثت في بيته بضع أيام طارقا بابها ليستفسر عما يحدث فهرولت أم فاتن إلى الباب لتبلغه بأن أخاه عادل قد جاء في الصباح ومكث عند الأم ساعات ثم عاد إلى بيته ومعه أمه وأخته وطفلتيها، ثم تنهد سامح بعد أن اتضحت له حقيقة ما حدث فشكر للمرأة ما تفضلت به من إجابة لسؤاله ثم توجه على الفور إلى بيت أخيه فوجد جمع حاشد من الرجال كان بينهما زوج أخته السابق والد طفلتيها هيام ومرام وعندما دخل سامح إلى بيت أخيه صافح الجميع إلا ذلك الرجل "فتحي الهواري" فقد رمقه بنظرة نارية تدل على مدي ما كان يحمله لهذا الرجل من مودة تحولت إلى بغضاء وكراهية، ولكنه تحامل حتى لا تكون تصرفاته مثار للنقد

فصافح الرجل وهو ينظر إليه باستياء لم ينجح في إخفائه وكان قد تمالك نفسه بشدة فبدا أمام نفسه كمن يتجرع قهرا دواء لا يحتمل مرارة طعمه أو سوء رائحته، لكنه لاذ بالصبر رغم كل شيء وبدأ رجل من كبار القرية بالتمهيد لما اجتمعوا له في هذا المكان فقال الرجل:

– لقد جئنا إلى هنا لأمر يرضي الله ورسوله، ولا نتمنى من الأستاذ سامح وأخيه الحاج عادل أن نعود إلى بيوتنا خائبي الرجاء وأن لا تنتهي زيارتنا هذه بالخزي وفقدان الأمل،فإننا نسعى إلى لم شمل أسرة فرق بين أفرادها الشيطان

فقال سامح فجأة ولم يقيم لحديث الرجل وزنا:

– لم يتدخل الشيطان يا حاج مسعود لقد كان الطمع والشهوة والاستهانة بحقوق الناس كما أقرها الشرع هو الدافع وراء ما حدث، لم يكن هناك مانع لرجل تزوج مرة أن يكرر الزواج شريطة أن يعدل بين زوجتيه، أما أن ينال مال الأولى ليتزوج الثانية ثم يحرم الأولى من أبسط الحقوق وعندما يفيض بها الكيل فتحاوره ينهرها بكلمات تسيء إليها ثم يهجرها هجرا طويلا مخالفا لشرع الله ولا يتعهد بناته منها بالرعاية فهذا لا يرضي الله أبدا، وما لا يُرضي الله لا ينبغي لعبد أن يرضى به طوعا أو كرها ما دام باستطاعته أن يتجنبه الوقوع فيه أو اقترافه

فقال مسعود محاولا تهدئة غضب سامح:

– يا أستاذ سامح أليس لاجتماعنا في بيتك كرامة لديك؟

فقال سامح وقد تمالك نفسه قليلا:

– وجودكم شرف يا حاج مسعود، وبيتنا هو بيتك، ويشرفنا أن يتسع لك ولكل ضيوفك ولكني لم أظلم الرجل ويعلم الله
فقال مسعود وقد ابتسم خجلا:
– كلنا نعلم من هو الأستاذ سامح، ونعلم علو قدرك ويعلم الله كم لك في قلوبنا جميعا من مودة وتقدير واحترام لكننا اليوم جئنا نطوي صفحة الماضي لنبدأ صفحة جديدة
وبعد مناقشات ساخنة استمرت ساعات طويلة وافق سامح وعادل على عودة أختهما لزوجها بعد وفائه بما التزم به أمام الجمع الذي احتشد من كبار الرجال وأعيان القرية، وخرج سامح بعد أن استبد به الغضب ليلطف نسيم الليل من درجات الحرارة التي لم تفلح وسائل التهوية بالمنزل في تخفيضها، ولم يكن يدرك أن أخاه يراقبه ويسير خلفه حتى يتبعه إلى جذع الشجرة العتيق غرب القرية حيث كان مرح الصبا ولهو الطفولة يستمر حتى تتبخر ظلمة الليل ويتنفس الصبح بالضوء الذي كان يثير في القلوب فرحا مجهولا كأنما ينقشع الظلام عن صبيحة يوم عيد وعندما أدرك عادل أخاه سامح قال عادل في لهجة توحي بالإشفاق على أخيه:
– ماذا بك يا شقيقي؟ لقد كنت مثالا للوداعة والهدوء لماذا انفعلت في مواجهة الرجل هكذا ، كان من الممكن أن تنقضي المشكلة بغير عنف في الحديث، فماذا بك يا أخي؟ لقد شعرت بالقلق عليك، هل ابنك بخير أم أن هناك جديد؟
فقال سامح وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة فاترة مرتعشة:

– لا شيء يا أخي ولكنها متاعب العمل وضغوط الحياة لم تدع للمرء فرصة ليحتمل أخطاء الغير، ولم أعد أحتمل أن أري إنسان يتعرض للظلم وأقف مكتوف الأيدي فما بالك لو كانت شقيقتي

فقال عادل محاولا تهدئة أخيه:

– الحياة لا تخلو من المتاعب، وكفي بالمرء أن يتحمل ما يحدث في الواقع من حولنا

ثم تنهد مبتسما واستطرد قائلا:

– هل كُتب علينا أن نحارب في مائة جبهة قتال مرة واحدة؟

فقال سامح وهو يتنهد مبتسما في مرارة:

– صدقت يا شقيقي، ولكن أخبرني كيف حال أبنائك الآن؟

ثم همس وهو ينظر إلى الأرض خجلا:

– هل أنجب أحدهم طفلا ولم تخبرني لانشغالك بما حدث مؤخرا؟ لقد كنت أريد أن أسألك يوم زفاف ابنتك لكني نسيت ذلك أو بالأحرى وجدت الفرصة غير مناسبة

فمال عادل إلى الأرض وقد استبد به الحزن قائلا في انكسار:

– لا والله يا أخي لم يحدث حتى الآن رغم كل الجهود المبذولة وما يتم إنفاقه من أموال ذهبت كلها سدي بغير جدوى ولا طائل

وصمت سامح الذي تنهد في مرارة ثم أطلق زفيرا قبل أن يهتف بأخيه بلا صوت:

– لو كنت تتحري الحلال وتراقب الله ما عوقبت بمثل هذا العقاب يا شقيقي

ثم استطرد سامح مخاطبا نفسه:
– لقد جنيت على شقيقتك وفرضت وصاية غير شرعية على ما كان لها من إرث من أبيك فتلوث مالك وأصبح ما تنفقه الآن تطهيرا لهذا المال رغم أنفك، كان حرمان أبنائك من الإنجاب عقاب لك، فاعلم أن الحرام لا يدوم وغن تكاثر وأغرى من طمع فيه
ثم عاد سامح إلى حديثه لأخيه قائلا:
– لا تيأس، إن الله مع الصابرين، لعل الله يكتب لك ولهم الفرج القريب والفرحة الكبرى
فابتسم عادل ابتسامة فاترة ثم هز رأسه وكأنما يؤمن على قول أخيه ثم ربت على كتفه قائلا:
– الحمد لله على كل حال، ولكن حدثني عن أخبارك والجديد لديك وما حقيقة ما سمعته عنك، هل حقا تفكر في أن تتخلي عن عملك بشركة التصدير؟ ولماذا إذا كان صحيحا؟
فاتسعت عينا سامح دهشة وقال فجأة:
– ومن أبلغك بهذا عني؟
ثم هدأت أنفاسه المضطربة فقال:
– إنها فقط مجرد خاطرة لاحت لي ذات يوم، لأني لا أريد أن أرى هذا الرجل المقيت المدعو برهان بيه
فانفجر عادل ضاحكا وقال فجأة:
– إن الأيام تسخر منا يا شقيقي، لقد أرسل هذا الرجل إلى بيتي دعوة صباح اليوم لحضور احتفال ضخم نحروا فيه عشرة ذبائح

وزعت لحوم معظمها على أهل القرية وأرسل إلى كبار الأعيان بالناحية والفري المحيطة دعوات مماثلة، إلا يعلم أني أخيك؟
ومن عجائب القدر أن تجد تلك الدعوات مدون بها كلمة يشرفنا حضوركم والعائلة الكريمة
ثم تبسم عادل ضاحكا وهو يضرب كفا بكف وتمتم هامسا:
– أستغفر الله العظيم، هكذا الناس في بلادنا بعضهم من شدة طغيانه يسرق مصابيح المساجد ليلا، ويشتري ببعض ثمنها شموع يتبرع بها لإضاءة المسجد فجر اليوم التالي، ثم يصلي بالناس إماما في نفس المسجد ويجف حلقه من شدة الدعاء على الظالمين واللصوص
ولاذ عادل بالصمت قليلا ثم تنهد بعمق وبصق على الأرض حانقا على كل شيء قبل أن يصيح ملوحا بيديه في دهشة:
– هكذا هم بعض أولي الأمر في بلادنا، يسرقك ثم إذا طالبت بحقك فيما سُرق منك تلفق لك الاتهامات الوهمية وبأوراق رسمية وتلقي في غياهب السجون ثم يقومون بتوكيل محامي للدفاع عنك ببعض مالك ويظهرون أمام الناس أنهم من أهل البر والتقوى ليكسبون أصواتهم في لجان الاقتراع
ولما ضاق صدر سامح بما يري ويسمع اقترب من أخيه واحتوى كفيه بين يديه ثم همس قائلا:
– دعك من كل هذا وأخبرني أولا متي سوف نأكل، إني أشعر بجوع شديد فلم أتناول شيء منذ أن وصلت إلى القرية
فمسح عادل وجهه بيديه وابتسم قائلا:

– إذن هيا بنا إلى المنزل وما نجد معدا للتناول سوف نأكله فلست غريبا حتى تعد له وليمة ضيافة

وتأبط سامح ذراع أخيه وانطلقا يقطعان الطريق إلى البيت بحثا عن الراحة والطعام حتى وصلا إلى البيت، وكانت رائحة الطعام قد اخترقت النوافذ إلى الشارع فعلم سامح أن ما يهواه من الطعام قد تم إعداده مسبقا دون أن يبلغه أخاه أنه كان أوصى من في البيت بطهي أشهى ما يحبه الرجل من طعام، وعندما فرغ نساء البيت من إعداد المائدة جلس عادل وأخيه على مائدة واحدة لأول مرة منذ زمن طويل، فلم يلتقيا إلا في عيد الأضحى عندما جمعتهما مائدة واحدة عند اقتراب الظهيرة فكانت المائدة خاصة برجال البيت فقط وأما النساء فقد جمعتهن مائدة بحجرة أخرى قريبة وبصحبتهن الأطفال، وبعد أن فرغ سامح من تناول طعامه جلس الشقيقان معا يحتسيان الشاي فقال سامح:

– أخبرني يا عادل ماذا أفعل في هذه الأزمة الراهنة؟

ثم تنهد وهو يردف قائلا:

– أقصد أزمة عملي الأخيرة بعد أن ضاق صدري بهذا العمل، لا أعلم إذا كان من الممكن أن أستمر وأتجاهل صوت ضميري أم أتوقف عن العمل بحثا عن بديل آخر وأحتمل صوت عواء البطون التي أطعمها بما أناله من أجر مقابل عملي الحالي

تنهد عادل ثم مص شفتيه أسفا وهو ينظر إلى الأرض قائلا:

– أنا لا أجد ما يمكن أن أقوله ولكني لا أفرض عليك أمرا

ثم اقترب هامسا:

– فقط تذكر أن لديك أبناء لا تكفيهم المبادئ لتوفير الطعام والكساء والنفقات وكن على حذر يا أخي من أن تحتك بمن يحتمي بسلطة ومال معا

قال سامح في نبرات تقطر حزنا وقهرا:

– إنهم يتدثرون بما هو زائل فيضيعون ما هو باقي يا عادل ولا أريد أن أكون ممن يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون لأنهم يتاجرون بمصائر الفقراء وأقواتهم لتنتفخ جيوب الأغنياء فيزدادون ثراء

وصمت عادل فجأة ولم ينطق بكلمة ثم تناول رشفة من كوب الشاي وتذكر شيئا فجأة فقال:

– ماذا لو حاولت أن تبيع أرض طريق القاهرة أسيوط الصحراوي لتقيم بثمنها مشروعا؟ أليس من الأفضل لك أن تستقيل إذا أثمر هذا المشروع ثمارا مادية تغنيك عن تعب العمل الخاص كليا

فقال سامح وهو يطبق زفيرا حارقا:

– ومن أدراك أني لم أحاول، لكن أحد جيراني وهو المدعو برهان بيه، صاحب هذا الصخب الذي يصم الآذان عند مدخل القرية عرض أن يشتري الأرض بأقل من ثمنها الحالي بحوالي الربع أي أنه سوف يدفع ثلاثة أرباع قيمتها الحقيقة

– وما المانع إذن من البيع؟

قالها عادل هو يكاد ينفجر غضبا

– المانع أني لا أحب الاستغلال

أجاب سامح أخيه في هدوء شديد ليفجر في رأس عادل سؤالا آخر:

– ماذا إذا استعان بأوراق مزيفة تثبت أن هذه الأرض تخص أحد أعوانه أو أنها من أملاك الدولة وتخص أحد الجهات الحكومية ومحظور بيعها أو التعامل عليها

فقال سامح غاضبا

– لو كان يستطيع أن يفعل ذلك لفعل منذ أن فكر في السطو عليها وضمها لأرضه وأنا الآن على ثقة بأن برهان لن يفعل شيئا إلا أن يستمر الوضع القائم حاليا كما هو لأن هناك انتخابات قادمة وهو لا يريد أن تلوك الألسنة اسمه أو سيرته حاليا بما يعود بالضرر عليه، وعندما يفرغ من الانتخابات ربما يتم التفاوض معه للحصول حتى على سعر يوازي ما دفعته فيها وما أنفقته عليها فليس مهما أن أربح ولكن الأهم إلا أخسر قرشا واحدا من كل ما أنفقته على تلك الأرض حتى الآن

ثم نهض واقفا وقال فجأة:

– اترك هذا الحديث جانبا وحدثني عن مشكلة ابنك، فهي الأحق بالعناية الآن من أي شيء آخر

فقال عادل وقد بدي على قسمات وجهه الأسى والتأثر:

منذ أن تعرض الفتي لهذه الأزمة وأنا لا أستطيع أن أسامح نفسي كلما رأيته حتى الآن

فتنهد سامح وقال في غضب:

– ما الذي دفعه إلى هذا الفخ؟ هل كان طامعا في المزيد من المال؟

ثم أطلق زفيرا حارقا وهو يلوح بيديه معترضا:

– حقا صدق القول لا يملأ عين ابن آدم إلا التراب
ثم أعرض عن أخيه فجأة لكنه عاد إليه سائلا:
– هل حاولتم استعادة ولو جزء من هذا المال؟
فقال عادل في نبرات توحي بالحزن:
– لا والله ما أفلحت كل محاولاتنا حتى الآن، لقد ذهبت بنفسي إلى هذا الرجل فوجدت زوجته وأبنائه يعيشون في عالم منفصل تماما عما نحن فيه ولا علم لهم بأي شيء مما يدور، وحاولت الاتصال بأخت هذا النصاب فكانت مثل باقي التجار تعشق المراوغة والمماطلة ولا ينال منها صاحب حق إلا الأعذار الوهمية والقسم بكل الأيمان الكاذبة، فهي تقسم كما صدق فيها قول القائل "قيل للنصاب أتقسمُ؟ فقال جاء إليك الفرج"
ولجأت إلى محامي فلم يستطيع أن يفعل شيئا
فقال سامح فجأة وقد التمس في كلمات أخيه الأخيرة طوق نجاة:
– فماذا لو ذهبنا معا الآن إلى الأستاذ "عصام عزمي" المحامي، ألم يكن صديقا لأبيك رحمة الله عليه؟ أنا أرى أنه محامي قدير ويمكن أن يرشدنا إلى ما فيه الصواب في حل هذه المعضلة
وابتسم عادل ابتسامة المغلوب على أمره ثم ربت على كتف أخيه قائلا:
– لن نخسر شيئا فإن أتى الأمر بثمرة طيبة فقد فزنا بما نريد وإن لم يأتي بشيء فقد ربحنا شرف المحاولة
ولم تمض إلا دقائق وانطلق الشقيقان معا إلى مكتب المحامي

الذي استقبلهما بترحاب بالغ، وبعد أن التقط الرجل أنفاسه قص على المحامي ما جاء من أجله فقال له المحامي وقد بدت على وجهه بوادر استياء:

– أريد منك يا أستاذ سامح أو من أخيك أن يشرح أحدكم لي تفاصيل الأمر

فقال عادل:

– لقد عمل ابني بدولة من دول الخليج، ثم شاءت الأقدار أن يلتقي بأحد التجار من مدينة دمياط واتفق معه على أن يستثمر هذا التاجر بعضا من أموال ابني في تجارة الملابس الجاهزة، ثم قام ولدي بزيارة بلدة الرجل ورأى تجارته فاستأمنه على أمواله، ثم اشتري الرجل بضائع كثيرة كانت تملا شاحنة ضخمة وباع كل المشتريات دون أن يهب ابني شيئا لا من ربح هذه التجارة ولا حتى من رأس المال، وكل ما كان يثبت قيام هذه الشراكة كان اتفاقا تعاقديا مدون في ورقة صغيرة بخط اليد

وهنا اتسعت عينا المحامي دهشة قبل أن يقول ساخرا:

– تلك القضية خاسرة لا محالة يا عزيزي، لأن هذه الورقة الصغيرة ليست سندا قانونيا يثبت أحقية ولدك في شيء ما وأيضا ليس هناك دليل على وجود ربح أو خسارة، إذا لم تكون هناك أوراق رسمية للمشتريات، بطاقة ضريبية أو سجل تجاري أو ما شابة ذلك، ولذلك فإن احتمال استرداد هذه الأموال ضعيف للغاية

وانطلق الشقيقان معا وكان سامح في واد وأخوه في واد آخر

عندما حدث سامح نفسه قائلا:
– الآن أصبح يتوجب علي أن أرد لأخي ما اقترضه من أموال يوم جراحة ابني الأخيرة حتى لا يعتقد أني فعلت به ما يفعله الغرباء وطلبت منه هذا المال طمعا فيما عنده، ولكن كيف أفعل وأنا مهدد بترك عملي في أي لحظة؟ وكيف لي أن أدبر نفقات بيتي وقد تعثر علي بيع قطعة الأرض التي أملكها؟
كان سامح قد بدأ يشعر بحرج موقفه بعد أن اقترب من عالم أخيه عادل الذي انفصلت عنه زوجته منذ فتره فكان يعتمد في احتياجاته اليومية وتنظيف بيته على ابنته وزوجة ابنه وقد تركته زوجته لسوء معاملته لابنها الأصغر من زوجها السابق وصار حاله أقرب إلى المشردين في بقاع الأرض وضحايا الحروب إلا قليلا، فقد كان له بيت يأويه وأرض يملكها لكنه كان يفتقر إلى الأمان والدفء الأسري، وكان ذلك يحتم على سامح أن يسعى جاهدا إلى إقناعه باستضافة الأم التي فقدت بصرها وتحتاج إلى من يرعاها في وقت كانت فيه زوجة سامح قد باعت ما تمتلك من مصوغات ذهبية وشاركت إحدى صديقاتها في متجر لبيع ملابس النساء والأطفال رغبة منها في تحقيق أمرين، الأول أن تملأ وقت الفراغ فلا تجد وقتا تفكر فيه فيما مضي من أيام وآمال قتلها الواقع بقسوته، والثاني أن تجد مصدر دخل يؤمن لها ما تتقي به تقلبات الأيام إذا ما أقدم سامح على تنفيذ ما يفكر فيه مما وضع الرجل في مأزق جديد وهو من يرعى والدته في غيابه أثناء عمله إذا ما بقيت لديه بعد رجوع ابنتها المطلقة

التي كانت تؤنس وحدتها إلى زوجها مؤخرا؟ ولم يعد عادل قادرا على رعايتها بعد زواج ابنته وانفصال ابنه بزوجته عن بيت أبيه ليصبح عادل نفسه في حاجه إلى من يرعاه، واهتدي سامح إلى أن يستأذن شقيقه في أن يستضيف والدتهما في شقته ثم يؤجر شقة أخرى لامرأة كان يصلها سامح ويبرها عطفا عليها ورفقا بها ابتغاء رضا الله وطمعا في ثواب الآخرة، إنها الجارة الطيبة أم فاتن الذي اضطر سامح إلى استضافتها مؤخرا لترعي أمه وتؤنس وحدتها عندما تمسكت الزوجة بعملها الذي وجدت فيه حياة جديدة ومتنفس من كل ما كانت تشعر به من ضيق وملل طيلة الفترة الماضية، ولكن ذلك ضغط على ما كان ينفقه الرجل من أموال فجعله مجبرا على أن يواصل العمل الحالي في مجال التصدير رغم كل ما يعانيه من رفض ونفور.

ومضت الأيام حتى أقبل شهر رمضان بنفحاته وبركاته وكانت "منيرة صادق" والدة سامح قد استقرت في بيته وبدأت رغم مرضها تقص على الصغار القصص الجميلة، وتركت لابنها الفرصة ليفرغ لعمله الذي لم يكن يرضي عنه حتى مضي رمضان وأقبل العيد فنحر سامح إحدى الذبائح ليوزع لحومها على الفقراء شكرا للنجاة عندما كتب الله النجاة لابنه من الجراحة التي كادت تودي بحياته، ورفرفت ألوية السعادة على حياة أسرة سامح قبل أن تضعه الأقدار في موقف كان من الصعب عليه أن يتجاوزه دون تضحية كبرى كان لابد فيها من أن يلجا إلى أقرب الأصدقاء إليه وبالفعل بدأ سامح يواجه المأزق الذي حاصر

حياته أخيرا بقدر عالي من الصبر والحكمة والتروي، فلم تكن قد انقضت فترة الإجازات الخاصة بعيد الفطر حتى وصلت إلى سامح أنباء تفيد بأن "طارق مهران" أحد رجال الأعمال قد أعلن عن ترشحه لعضوية مجلس الشعب عن نفس الدائرة التي يشغلها برهان زناتي والذي كانت له مع سامح تجربة سابقة حول قطعة الأرض التي يملكها وقد تعرض سامح لضغوط شرسة اضطرته إلى اتخاذ قرار حاسم في وقت كان من الصعب عليه أن يتراجع فيه عن مثل هذا القرار عندما بدأ المهندس "طارق مهران" بالتقرب إليه وبأن يعرض عليه أن يكون أحد أعضاء الحملة الانتخابية له مقابل ما يريد من المال، وقد اتخذ سامح قرار مصيري عندما عرض على طارق مهران هذا أن يشتري قطعة الأرض التي يملكها وهو يعلم ما هو قائم من خلافات بسبب قطعة الأرض هذه بين سامح وبرهان زناتي، ومن المثير للدهشة أن طارق مهران مهندس الإنشاءات واقف على شراء قطعة الأرض طمعا في دعم سامح له في حملته الانتخابية، إلا أن سامح بعد توقيع عقود الأرض واستلام المبلغ المتعاقد عليه كان قد اتفق مع زوجته سرا على العودة إلى بيت أبيه وإعادة بنائه، ثم تخلي عن وجوده غريبا في شقته بحي الهرم، وحصل على أجازة مفتوحة لمدة عام كامل بدون راتب من المؤسسة التي يعمل بها بعد أن تظاهر بدعمه للمهندس طارق مهران في حملته الانتخابية من خلال الظهور على الفضائيات الخاصة، والحديث عن دور الشباب في بناء المجتمع ،وكتابة عدة

منشورات وشعارات حملها الهاتفون بفضائل المهندس طارق في الشوارع وفوق السيارات التي تحمل مكبرات الصوت وتجوب شوارع القرى المجاورة لقرية سامح، وكانت تلك اللافتات تحمل ما يردده الناس عن خدمات طارق مهران لأبناء دائرته وتتكلم عن إنجازات طارق وسمعة عائلته وما قدم لأهل دائرته، ولم تمضي عدة أيام حتى تلاشي وجود سامح ودعمه للرجل الذي أخرجه من مأزق قطعة الأرض السابق وعاد سامح إلى أهله وعشيرته وأصدقاء الطفولة بالقرية، لكنه لم ينس أبدا علاقته بصديقه جمال عبد الرحمن الذي لاحظ في الفترة الأخيرة أنه لم يقم بزيارته منذ فترة طويلة، فقرر أن يقوم بزيارته بعد أن استقر في بلدته الريفية في نفس البيت الذي ولد وتربي فيه عندما كان لا يزال تلميذا بالمرحلة الابتدائية وما تلاها حتى انتهاء مرحلة التعليم الثانوي، لكن قبل تلك الزيارة التي غيرت مسار حياته كان قد قرر أن يتوجه صباح أحد الأيام إلى مديرية التربية والتعليم ليقوم بنقل أبنائه من إدارة تعليمية إلى أخرى داخل نفس المحافظة حتى يكون أبنائه في مدرسة قريبة من مسكنه الجديد الذي أعاد بنائه وتدعيم جدرانه من جديد، مما استنفذ كثيرا مما كان يتوفر بيديه من أموال كانت قد تيسرت له عندما باع قطعة الأرض التي كان يملكها، ولم تنس زوجته متجرها القائم قريبا من مسكنها القديم، فأبقت عليه كما هو رغم أنها كانت تداوم على زيارته مستخدمة وسائل المواصلات العامة حتى أصابها الضجر والملل فاشترت سيارة صغيرة مستعملة وبحالة جيدة لتتواصل

مع زبائن المتجر وتتمكن من متابعة النشاط والإشراف عليه، وعندما أنهى سامح إجراءات نقل أبنائه إلى المدرسة التجريبية القريبة من مسكنه الجديد، قام بزيارة المدرسة للاطمئنان على ما وصل إليه مستوي الأبناء فأخبره أحد المعلمين بما أثلج صدره حين قال له وعلي وجهه علامات الدهشة والأسى أنه يعز علينا انقطاع محمود عن المدرسة بعد أن أصبح مستواه الدراسي شديد التميز وتفوق على كثير من أقرانه، ولكن سامح الذي كان مضطرا لتلك الخطوة بعد التطورات الأخيرة همس إلى المعلم في هدوء وهو يريد طمأنة الرجل

– قريبا بأذن الله ربما يعود محمود إلى رفاقه فلا يعلم الغيب إلا الله وحده

وانصرف سامح وهو يواري خجله الشديد لعدم قدرته على ترك ابنه يواجه الاغتراب والوحدة ويحتمل مشقة السفر البعيد كل يوم في الصباح الباكر من القرية إلى المدرسة ذهابا وإيابا، لكن الرجل الذي اصطحب ولده عائدا إلى بيته كسير الفؤاد تردد في نفسه ذلك الحديث الخالد في مخيلته والذي تردد صدى كلماته في عقل الرجل "داووا مرضاكم بالصدقة"، فقد تذكر الرجل أنه كان يكثر الصدقة على الفقراء رغم حاجته إلى المال أثناء مرض الفتي وحتى مرت الجراحة التي أجراها بسلام، وقضي سامح أيام يفكر فيما يجب عليه فعله في هذه الفترة الحرجة، فالمال الذي معه يتناقص كل يوم، والرجوع إلى عمله وإن تيسر إلا أنه أمر بغيض لا ترتاح إليه نفس الرجل، فماذا عساه أن يفعل

وقد زادت أعباؤه المالية في الفترة الأخيرة لأسباب لم يستطيع أن يبوح بها ؟

كان هذا السؤال الحائر هو ما دفعه إلى زيارة صديقه جمال عبد الرحمن والذي لم يكن متواجدا في بيته عندما قرر سامح زيارته في صباح اليوم التالي

الفصل التاسع

استمر سامح في جولته ما يقارب نصف الساعة تقريبا بين منزل صديقه جمال عبد الرحمن بمنطقة حدائق الأهرام بالجيزة ومقر عمله السابق بإحدى القنوات التليفزيونية الخاصة والتي يملكها أحد رجال الأعمال، ثم عاد إلى المزرعة القريبة من هذا النطاق بعد أن تعطل هاتف سامح عن العمل بسبب نفاذ الشحن الكهربائي، لكن الرجل عندما استبد به الغضب اتصل هاتفيا بصديقه باستخدام المحمول الخاص بأحد العمال بالمزرعة فأكد عليه جمال أن ينتظره حتى يعود وأخبره بأنه قادم من إحدى المحافظات ومعه سائق شاحنة ومساعده وأنهم كانوا معا في رحلة إلى أحد مصانع الأسمدة لشراء كمية من الأسمدة بسعر مخفض بعد توسط أحد الأصدقاء بين أكرم شقيق جمال الأكبر وبين صاحب المصنع ليقوم جمال بالشراء من المصنع مباشرة نيابة عن أخيه الذي لم يتمكن من إتمام هذا الأمر لسوء حالته الصحية في الفترة الأخيرة، ولم تمض سوي دقائق معدودة حتى وصل جمال بصحبة رجلان آخران إلى أرض المزرعة وعندما فرغ الرجال من عملهم كان جمال قد استعاد بعض هدوئه وقوته بعد أن أخذ حماما منعشا ليريحه من مشقة السفر وعناءه ثم عاد إلى سامح يمازحه كما تعود الصديقان بقوله:

– أين أنت يا صديقي؟ هل كنت تغزو الصحراء؟

وضحك سامح ساخرا:
– لا والله بل كنت أكاد أضرب راسي في الصخور أو أشق الإسفلت في ظهيرة صيف بحثا عن ماء مثلج رغم أني أعلم أنه درب من الخيال
فانفجر جمال ضاحكا وقهقه حتى مال برأسه إلى الوراء قائلا:
– لقد سبقتك إلى هذا العبث عندما طلبت أن أكون إداريا بالقناة التي كنت أعمل بها بدلا من أن أكون مراسلا فاتهموني بالجنون وكنت مضطرا لأن أستقيل
وانعقد حاجبا سامح دهشة وصرخ فجأة:
– هل قدمت استقالتك يا جمال؟
فقال جمال:
– نعم
ثم نظر إلى صديقه مستنكرا وهو يرمقه بنظره تنم عن الدهشة قائلا:
– ألم تحصل أنت سابقا على أجازة من عملك يا سامح؟
فقال سامح ولم تخلو نبرات صوته من الدهشة:
– نعم ولكن..
قاطعه جمال فجأة وقد جفت ملامحه:
– ولكن ماذا؟ أخبرني
ثم نظر إلى الخلف وأحضر زجاجة عصير مثلج فقدمها إلى صديقه ثم قال جمال:
– ولكنك مندهش لماذا قدمت استقالتي من عملي، أليس

كذلك؟
فقال سامح وقد غشيت وجهه سحابة من الكدر والضيق:
– في الحقيقة نعم، لأني لا أري مبررا لمثل هذا
فانفجر جمال صارخا:
– إن إعلامنا الخاص خلقته ظروف خاصة أيضا، وقد كان يطلب منا أمورنا تجاوزنا عن الكثير منها ولكن عندما يطلب مني أن أصنع من رجل أعمال بكلماتي هرما شامخا وأنا أراه في عيني بذرة فاكهة صغيرة أو حجرا يعبث به صبي صغير، فإنه مطلوب مني أن أكذب كذبا مقننا وهذا لم يكن يرضيني، لأنه لا يرضي الله قبل الناس، ولا أعتقد أن يرتاح ضميري إذا ما كنت مثل الشعراء في الجاهلية فإن أعطاهم أحد الملوك مدحوا من أعطاهم وإذا منعهم عطاياه فإذا هو في نظرهم أحق الناس بالذم والهجاء، ليس هذا من طبعي ولا هذا الذي تربيت عليه، كنت إعلاميا، لكنني في الأصل خريج كلية الألسن قسم اللغة الإنجليزية وبإمكاني أن أعمل مترجما في أي مكان لولا أن زوجتي مهندسة ديكور وتعمل في شركة خاصة يملكها أبوها لكان من اليسير جدا علينا أن نسافر خارج مصر كما بدأت حياتنا فيما مضي بعد زواجنا مباشرة وحتى عدنا قبل ثلاثة أعوام، وأنا والحمد لله سعيد بحياتي رغم أن زوجتي لم تنجب لكني أحبها ولن أتخلي عنها، فلن تعطي أقدار الله لابن ادم كل النعم دفعة واحدة، فنحن لسنا في الجنة يا صديقي والله قد قال في كتابه (ولقد خلقنا الإنسان في كبد) ﷻ

فقاطعه سامح:
– هدئ من روعك يا جمال وانزل من فوق المنبر فقد حان وقت الصلاة، تكفي خُطبة واحدة يا هذا
فابتسم جمال وقال في ضحكة ساخرة:
– هكذا أنت كعهدي بك دائما، تحول المزاح إلى جد والجد إلى مزاح متي أردت
فقال سامح بعد أن تنهد في مرارة:
– يا صديقي هذه الدنيا زائلة بما عليها، لن تنال منها إلا عملك الصالح وحسن السيرة
ثم أمسك بطرف أنفه ومط شفتيه كما لو كان يريد أن يتذكر شيئا ثم قال فجأة:
– نسيت عن أسالك عن أحوال أستاذ أكرم وصحته وما سارت إليه حياته
فقال جمال وقد بدي على وجهه الحزن والتأثر:
– أتمني منك أن تدعوا لأكرم يا سامح فحالته الصحية ليست على ما يرام وبدأت تتكالب عليه الأمراض كفريسة سقطت بين قطيع من الأسود
فقال سامح وقد غشيت وجهه سحابة من الحزن:
– لا حول ولا قوة إلا بالله ماذا أصاب الرجل لقد كان بخير حتى زيارتي السابقة لك
فقال جمال وقد بدي على وجهه التأثر:
– نعم ولكنه أصيب بنزلة برد مكث على إثرها في الفراش أياما

ثم تطور الأمر إلى اكتشاف أصابته بالنقرس والانزلاق الغضروفي في وقت واحد وهو الآن يعالج منهما معا بالتوازي

فقال سامح وقد بدي على وجهه التأثر بما سمعه عن الرجل

– اسأل الله له شفاء عاجلا لا يغادر سقما

ثم استأذن جمال في أن يرحل فقال جمال في دهشة:

– إلى أين يا صديقي

فتنهد سامح متوجعا قبل أن يهمس في مرارة:

– إلى حيث لا مكان، فقد أصبحت الآن واحدا من جموع العاطلين، فإما أن أبيع ضميري وإما أن أعمل عند غيري وأنفذ ما يحلو لهم

فصرخ جمال فجأة واتسعت عيناه حين قال وقد غمرت وجهه سحابة من الفرحة الممزوجة بالدهشة:

– وماذا لو كتبت ما يحلو لك وربحت أيضا ما يغير خريطة حياتك ويخلق منك صاحب عمل

فقال سامح ساخرا:

– يا رجل انشغل بما ينفعك ولا تؤلم رأسك ورأسي معك بهذا المزاح، فقد مضي عهد الفوازير ولن تعود أيام "شيريهان" مرة ثانية

ثم تركه سامح وانصرف وقبل أن يلقي بجسده في سيارته كان جمال قد لحق به قائلا:

– والله إني لا أمزح ولك عندي مفاجأة ذكرتني بها جملتك أثناء حديثك حين قلت "وأفعل ما يحلو لهم"

فغادر سامح السيارة وهو يحدق في وجه جمال ويتنهد بعد أن انعقد حاجباه وهو يهمس قائلا:
– أشعر أنك جاد فيما تقول، فماذا وراء حديثك؟
فقال جمال مبتسما:
اطمئن على مستقبلك يا صديقي، فقد قرأت في مجلة عربية تصدر شهريا عن مسابقة سنوية لأفضل بحث أدبي أو رواية أو ترجمة لعمل أدبي عالمي يتقدم به باحث أكاديمي أو كاتب أو مثقف عربي عن شخصية عامة عالمية أو عربية أو مصرية لها تأثير كبير على الناس وهذا البحث مطلوب خلال شهرين من الآن وله ثلاثة شروط، أولهما أن يكون المتقدم قد جاوز الأربعين، وثاني هذه الشروط أن يكون العمل المقدم باللغة العربية الفصحى، والثالث أن يختار صاحب النص المرسل إلى إدارة الجائزة شخصية عربية أو عالمية لها تأثير كبير على الإنسانية وأفادت البشرية بما قدمت من أعمال، ساهمت في سعادة الناس في أي مكان وأي زمان، فتنهد سامح قائلا:
– يبدوا أن حديثك هذه المرة جادا يا صديقي وأنك لا تمزح كما عودتني
فقال جمال:
– نعم وأقسم لك أني لست مازحا هذه المرة، فاستمع إلى وسوف تجد بإذن الله مخرجا من كل أزماتك المادية والوظيفية ولكن عليك التركيز في هذا الأمر، أولا أنت جاوزت الأربعين، ثانيا أنت تجيد الكتابة بالفصحى ومؤهلك يمكنك من ترجمة

أي نص باللغة العربية من اللغة الانجليزية وأنت كنت وما زلت تهوي القراءة والقلم رفيقك، فماذا يمنعك من أن تشترك بمثل هذه المسابقة

فقال سامح ولم تفارق نبرات صوته رائحة الشك والتردد:

– ومن يضمن لي أن أفوز؟

فقال جمال في لهجة حاسمة:

– اجتهادك يا صديقين وقبله توفيق الله لك، ولك أن تعلم إنهم خمس جوائز قيمتها ١٠٠ ألف دولار للفائز الأول ثم ٨٠ ألف للثاني ثم ٦٠ ألف للثالث ثم ٤٠ للرابع ثم ٢٠ ألف لمن يحقق المركز الخامس

ثم استطرد جمال قائلا وقد أشرق وجهه كأنما تبخرت كل الهموم من فوق كتفه:

– ولك أن تعلم أن هناك جزء من المسابقة خاص بالترجمة وقد اشتركت به وسوف أترجم رواية عربية بنفسي، لكني لم أستقر بعد على رواية محددة تستهويني قراءتها ثم ترجمتها

فقال سامح وقد دار الأمر برأسه فلقي قبولا فتحمس لخوض التجربة:

– من تقترح علي ليكون جديرا بالكتابة عنه من العرب؟

فقال جمال وقد أصابته الحيرة:

– إن عالمنا يعج بالنوابغ في كل مجال لكن..

قاطعه سامح بصورة مفاجئة هامسا كمن يحدث نفسه:

– دكتور احمد زويل؟ الأديب العالمي نجيب محفوظ؟ أو

دكتور مصطفي محمود؟
فقال جمال في صوت حاد وقد استبد به الغضب:
– ولماذا تختار دائما من لم تراهم بعينيك؟
وأجاب سامح وقد بدي شارد الذهن:
– لأننا لا نذكر بعد رحيلهم إلا ما يذكرنا بهم من أعمال خالدة وفكر أسعدنا وأضاء لنا ولغيرنا الطريق إلى حياة أفضل
فقال جمال في نبرة يبدو منها الثقة في تحقيق الفوز:
– ابحث عن جديد
فقال سامح وقد أرهقت الحيرة قلبه وعقله:
– ومن تعتقد جديرا بأن أكتب عنه صفحات ربما تبقي حتى بعد موتي؟
فقال جمال مبتسما وهو يشعر بالتردد خشية أن يعارضه سامح:
– ما رأيك في أن تكتب عن عملاق الأدب؟
فقال سامح في نبرات مرتعشة وقد انعقد حاجباه:
– من تقصد بعملاق الأدب؟
فقال جمال:
– عراب الجيل
وتنهد سامح وهو ينظر إلى الأرض ثم ساد صمت طويل قبل أن يرفع عينيه إلى صديقه قائلا:
– وماذا اكتب عن هذا الرجل العملاق وقد قرأ له ملايين القراء؟
فقال جمال وقد استهوته الفكرة التي أوحت إليه بها الأقدار:
– اكتب عنه ما يعرفه عنه القراء وما لا يعرفه الناس، فإذا عرف

قراءه عنه جديدا فقد زادت مكانته في عيونهم رفعة فوق رفعتها، وإذا عرفه ما يجهل الرجل فقد منحت لصاحب قلما مكانا في قلوب قراء جدد، فيتولى من عرف الكثير عن حياته التعريف بسيرته الطيبة وحياته وكتاباته الحديث عن الرجل لمن لا يعرفه، وإذا قرأ كلامك من لم يعرف الرجل فقد أعطيت لصاحب فكر قدرا هو به جدير مهما كانت كلماتك محدودة وضئيلة في شأن رجل تركت كلماته في قلوب قرائه بصمة لن تمحوها الأيام وصادفت الفكرة في نفس سامح هوي وقبول فاتسعت عينا الرجل دهشة وقال في ذهول:

– يا روعة أفكارك يا جمال، حقا إنك عبقري والله

ثم مال سامح برأسه إلى الأرض وقال في حيرة:

– ولكن هل يمكن أن..

فقال جمال مندهشا:

– مالي أراك حائرا

فعاد سامح إلى الحديث قائلا

– هل يمكن أن أكتب عمل أدبي عن رجل لم أره من قبل؟ وربما يكون سببا في تغيير حياتي كما غير حياة الكثيرين

فقال جمال مبتسما وقد غمرت وجهه دهشة عارمة:

– رجلا لم تراه؟

وهل رأيت نجيب محفوظ أو زويل أو مصطفي محمود؟

فقال سامح:

– لم يسبق أن رأيت أحدهم ولكني رأيتهم على الشاشة

وتبسم جمال ضاحكا وهو يسمع على قول صديقه وعقب على حديثه قائلا:

– دكتور أحمد خالد توفيق قرأ له ملايين ويعرفه الآلاف من القراء عن قرب

فقال سامح مستبشرا:

– ويكفي أنه كاتب مصري وعربي وفخر لكل المصريون والعرب وأنه رائد من رواد أدب الرعب والخيال العلمي في مصر والوطن العربي

ورد جمال متحديا:

– وسوف تجد ملايين في مصر أيضا يعلمون عن العراب كل شيء، إذا سألت أحد الشباب هل تعرف دكتور أحمد خالد توفيق وكان من عشاق كتاباته سوف ينظر إليك كما لو كنت تسال أستاذ جامعي مصري هل سمعت عن كوكب الأرض؟ وعندها ربما ينظر إليك من تسأله من أعلي إلى أسفل ثم ينصرف عنك مندهشا ويغادرك ويمضي إلى حيث يذهب كأنك في عينيه من سكان الفضاء، فإذا أردت أن تسال أحدا من عشاق هذا الرجل وهم يقدرون بعشرات الملايين في كل بقاع الدنيا فقل لمن تسأله ماذا تعرف عن حياة العراب غير الذي يعرفه كثيرا من قراءه، عندها فقط سوف تجد نهرا متدفقا من المعلومات بين يديك من خلال الأصدقاء والمجلات وصفحات التواصل الاجتماعي والأصدقاء وأنا أولهم يا صديقي فأمسك سامح بيدي جمال معا وهزهما في امتنان وشكر بالغ

وقد أشرق نور وجهه كمن أخذ عفوا بعد صدور حكما بسجنه مدي الحياة وودع صديق العمر قائلا وهو يشير ملوحا بيده:
– سلام الله عليك يا أوفي الأصدقاء، وبإذن الله سوف أغيب لفترة لكني لن أنقطع عن الحديث معك، ثم عاد إلى بيته وقلبه يرفرف من الفرحة أملا في الفوز بتلك الجائزة القيمة وكانت قد صفت له الدنيا فألقي أذنيه إلى أغنية رائعة كانت تشدو بها سيدة الغناء العربي وهي أغنية "حكم علينا الهوى" كعادة سامح حين يتجاوز كل متاعبه وآلامه مطلقا لروحه العنان لتسبح في سماوات الطرب ذات الألوان المبهجة، فتلاشت كل الأحزان، وترنم القلب الأخضر، ومضي سامح يطلق صفيرا ويردد مع نغمات الموسيقى وقد صفت له الأيام بعد كدر طال مُكثه شهورا، لكنه الآن يبدأ مع الحياة صفحة جديدة، فبدأ يقرأ كل يوم كتابا أو أكثر من روائع العراب احمد خالد توفيق، ويتابع ما يكتب عنه في كل مكان، ويسأل عن كل من لديه معلومات وافيه عن هذا الرجل الذي أوجدته الأيام في حياته كهدية وهبها القدر إياه ليكون مفتاح لتغيير حياة الرجل بصورة جذرية وقرر أن يبدأ في كتابة أولي صفحات البحث فكان العنوان الذي اقترحه سامح، قد جاء إليه فجأة عندما استيقظ وقبل أن يغادر فراشه، فهمس متحدثا إلى نفسه دون أن يحرك شفتيه:
– سوف أبدأ الآن مسيرتي مع هذا الرجل وسأكتب كل ما عرفته وما يعرفه غيري تحت عنوان (أحمد خالد توفيق – عراب الجيل)

وعاد سامح إلى أوراقه وقلمه من جديد، وكان لا ينقطع عن الكتابة ليلا ونهارا طيلة عشرون يوما متصلة، فكان يكتب في اليوم الواحد صفحتان إلى ثلاث صفحات، ثم يعيد صياغتهم أثناء الليل من جديد حتى بدا يتأثر بالصفات الإنسانية لذلك الرجل الذي وجد من نفسه شغفا بالحديث عنه مع الناس فيما يتعلق بما ورد في صفحات الرواية الذي كان يريد أن ينتهي من كتابتها في أسرع وقت ممكن، حتى صار الأصدقاء يتقربون إلى سامح بإهدائه معلومات عن حياة الرجل الذي اتخذ سامح من سيرته وحياته قاربا من قوارب الأمل في بحر حياته المليء بالأعاصير والأمواج والتي كان أشدها قسوة وأكثرها عنفا احتياج سامح إلى المال، لكن الدافع الحقيقي لكتابة هذه الرواية وهو الفوز بالجائزة لم يعد يمثل سببا رئيسيا وراء استماتة سامح في الكتابة عن هذا الرجل، فقد رأى أن الرجل يمثل نموذج مشرف وصورة راقية لرجل مصري يعبر عن روعة الأثر الذي يتركه الأدب والفكر وجوهره الحقيقي الذي يمنح الإنسان سعادة تكمن في شعوره المتدفق والدائم بالرغبة في إسعاد غيره وتنوير عقله، ولذلك صار سامح نفسه أكثر حرصا على القراءة والاستماع إلى الناس وعلى الرغم من أنه لم يكن يظهر كثيرا، إلا أنه أصبح مجاملا أكثر من ذي قبل، وصار يخالط الناس أكثر من ذي قبل، وتغير شعوره بقيمة الحياة وأهميتها متجاهلا ما ظنه البعض تعاليا منه عليهم عندما أجبرته ظروف كتابة الرواية عن حياة ذلك الأديب الأسطورة أحمد خالد توفيق أن يبتعد عن كل المحيطين

به أغلب ساعات النهار، فلم يعد يظهر إلا ليلا ولفترات قصيرة كالبرق الخاطف، أو عندما تتطلب ظروف طارئة تواجده، وأصبحت متعته الأولى قراءة روايات وأعمال العراب الأدبية، وقد صاغ سامح روايته حول حياة شاب كان يعيش في فقر شديد بين أربعة من الإخوة لأب بعمل في مقهى ريفي وأم لا تعمل، وكان والد الفتي الذي أسماه سامح في روايته المعلم دكروري قد ضاقت به سبل العيش الكريم فاتجه إلى تجارة غير مشروعة حتى اقتيد في ليلة قاسية إلى غياهب السجون ليموت بعد عدة شهور داخل محبسه في الوقت الذي كان فيه ابنه يعمل في مجال الإنشاءات أثناء الإجازات الصيفية، لتمر سنوات العمر بالفتي ويلتحق بكلية دار العلوم ليدرس اللغة العربية، ويواصل الفتي محسن دكروري مسيرته في الحياة متحديا كل الصعاب، ويتم تعيينه معيدا بالكلية، ويسجل الفتي لنيل درجة الماجستير في النقد والرواية ويختار الفتي عنوان مميزا لتلك الرسالة التي كان عنوانها (أدب الرعب والخيال العلمي في مصر وتجديد شباب الحركة الأدبية أحمد خالد توفيق نموذجا)، كانت رواية سامح درويش التي وهب لها كل طاقة النفسية تحمل عنوان "شموع في قلب العاصفة" ومضت الأيام سريعا وسامح لا يكف عن الكتابة ليلا ونهارا بعد أن تغاضي عن كل ما كان يكدر صفو علاقته بزوجته خلال تلك الفترة التي لم يكن يتحدث فيها إلى زوجته إلا فيما ندر

الفصل العاشر

قضي سامح فترة طويلة استغرقت قرابة واحدا وعشرين يوما في عمل دؤوب جمع خلاله مئات من الكتابات النقدية والتحليلات الفنية والأخبار والصور، ودخل عالم البحث الإلكتروني عبر شبكة الإنترنت وموقع الفيديوهات المصورة يوتيوب ليستوثق مما يدونه في روايته الهامة عن نجم الأدب في مصر والعالم العربي دكتور أحمد خالد توفيق، مما أدى إلى انقطاعه عن الجميع حتى سئمت زوجته ذلك الصمت المخيم على حياتهما الزوجية بغير جدوى كما كانت تظن لأنها ما رأت فيما قدم زوجها من كتابات سابقة للصحافة والأدب إلا قليل من المال ما كانت في مخيلتها تسمن أو تغني من جوع، حتى جاءت ليلة شعرت فيها بألم شديد في المعدة فهب سامح لنجدتها لكن الليل كان قد تأخر ولم يكن معه ما يكفي من المال لينطلق بها إلى طبيب خاص فاصطحبها إلى مستشفى حكومية محدودة الإمكانيات رديئة الخدمات خالية من كل شيء إلا من ممرضة عجوز بينما تقاعس الطبيب المقيم بسكن الأطباء بالطابق الثاني من المستشفى عن نجدة المريضة مما أوغر صدر آمال تجاه زوجها وأدي إلى تغير معاملتها له بصورة ملحوظة حتى فاجأته يوما بقولها:

– وماذا بعد كل هذا الانغماس في الكتابة يا سامح؟

ثم أطلقت زفيرا حارقا وهي تلوح بيديها قبل أن تنفجر في وجهه صارخة:
– هل يطعم أبنائك ويطعمنا وينفق علينا ما تضيع فيه عمرك وجهدك وتنفق فيه وقتك ومداد قلمك من كتابات لم تجني منها إلا القليل؟
فنظر إليها وقد اتسعت عيناه دهشة إلى الحد الذي انعقد معه لسانه فلم ينطق بحرف واحد لكنه نهض مسرعا بعد أن أدخل أوراقه أحد أدراج مكتبه، ثم انطلق خارجا فلم تسمح له زوجته بمغادرة حجرة المكتب واستوقفته عند الباب وهي تصرخ في وجهه:
– لا تتركني هكذا واجب عن سؤالي
فقال لها في برود قاتل وقد عقد ساعديه إمام صدره:
– اسألي ما شئت وسوف أجيبك
فهدأت نبراتها الغاضبة وقالت له في نبرات أقرب إلى التوسل منها إلى الاستفسار:
– إلى متي سوف تظل هكذا تاركا عملك ومتعاليا على الناس؟ ألا يكفي تقصيرك معي عندما تعرضت لأزمتي الأخيرة؟
فأمسك بيديها وقبض عليهما برفق قبل أن يهمس قائلا:
– أولا أنا لم أقصر معك عندما مرضت فأنت تعملين أن النقود كانت في البنك القريب من القرية وقد فوجئت بما حدث لك ولم يكن بوسعي أن أتركك لأذهب إلى البنك وأنت تتألمين وكان الليل قد تأخر وليس بوسعي أن أمد يدي مقترضا من أحد،

ولم يكن من الممكن أن يساندك غيري، فأمي كما تعلمين أعانها الله على ما هي فيه، وأبنائي صغار، فلم يكن متاحا في تلك اللحظة إلا أن نذهب لأقرب مكان وليتني ما فعلت

ثم تنهد متأوها قبل أن يطيل النظر إلى عينيها قائلا في صرامة:

لست أنا من يسمح لزوجته أن تنفق أموالها عليه أو حتى على نفسها فيكون في عينيها صغيرا، أعترف أني منشغل عنك في الآونة الأخيرة، لكن لا تجعلي الحدث الأخير سببا في كل هذا الغضب العارم، ولك مني وعدا أن تنتهي كل مشاغلي التي تأخذني منك ومن نفسي ومن أبنائي قريبا

فقالت في ضراعة وهي ترفع عينيها إلى السماء:

– يا رب يجعل تعبك آخرته خير

ثم تنهدت في محاولة كبح جماح غضب مكتوم يغلي داخل صدرها:

– أمنيتي أن أحيا فقط حتى أري نتيجة لما تفعله بنا وبنفسك

فقال مبتسما أعدك أن تسعدك محاولاتي الأخيرة للكتابة بإذن الله، فإني على يقين أن دعوات أمي لن تذهب سدى هذه المرة

ثم ابتسم في وجه زوجته وطبع قبلة باردة على جبينها وتجاوزها عند الباب منصرفا بغير وداع ولم يكن قد تجاوز بيته ببضعة أمتار وقبل أن يصل إلى سيارته فوجئ باتصال هاتفي من أخيه يعاتبه قائلا:

– لماذا أغضبت زوجتك يا سامح؟

فقال وقد استبد به الغضب:

– كيف عرفت يا عادل لم تمضي سوي بضع دقائق هل أبلغتك بهذه السرعة؟
فقال عادل:
– يا شقيقي نحن إخوة
ثم كررها ثانيا:
– أشقاء فلا تحزن، أي ليس لأحد منا في هذه الأرض سوى الآخر، فذلك أنا أريدك في أمر هام
فغير سامح مساره متوجها إلى بيت أخيه وعندما دخل إلى بيته لم يكن بعد قد استراح مما أصابه من توتر ولم يكن قد التقط أنفاسه حتى عاجله أخيه بسؤال أثار ثورة غضبه عندما سأله عادل:
– كم ربحت من الكتابة منذ أن تركت عملك بالشركة التي سئمت العمل بها حتى الآن؟ وماذا جنيت من انغماسك خلف أوراقك؟
فقال سامح وقد بذل جهدا خارقا ليبدوا هادئا:
– اعلم أنني اقترضت منك سابقا، ولكن إذا لم أتمكن من رد ما اقترضه منك في خلال شهر فإن لك كل الحق في أن تفعل ما تريد ولا تعاتبني بأمر لم يضر أحد ولن يفيد غيري
وانصرف سامح وهو لا يري شيئا أمامه إلا سحب من الدخان الأسود كان مصدرها سحابة الغضب الأعمى التي غطت سماء عقله فاتجه على الفور وبأقصى سرعة إلى جمال، ذلك الملاذ الآمن في حياته كلما كانت الأيام قاسية عليه، ورغم أنه وجد

جمال نائما فقد أصر على إيقاظ صديقه رغم أنه لم يكن يحتمل أن يفعل ذلك معه أحد، فأن أشر الخلق في عيون سامح وأعظمهم ذنبا في نظره من يتجرا على أن يوقظه من نومه قسرا ولأي سبب مهما بلغت عظمته، لكن صديقه لقيه مبتسما وتمالك نفسه عندما فوجئ به يقف عند رأسه الذي أنهكته الأعمال الشاقة طيلة النهار فآوى إلى فراشه ساعة ليستعيد بعضا من نشاطه، لكنه رأى تغيرا في وجه سامح جعله يصبر حتى يتبين حقيقة ما حدث، وبعد أن أخذ جمال حمامه اليومي المنعش خرج ليستقبل صديقه مبتسما كأنما ولد من جديد، ثم قال له في دعابة:

– أخبرني من جديد ماذا حدث، فقد كنت في شبه غيبوبة ولم أدرك شيئا مما قلت حين أيقظتني

فقال سامح مبتسما في مرارة:

– لقد تشاجرت أنا وزوجتي وكادت أن تهجر البيت مطلقا بسبب انشغالي بالكتابة عنها وعن أولادي ونظرتها إلى الأمر بأنه غير ذي جدوى، وقد وصل الأمر بها إلى أن اتصلت بأخي تشكوني له

فهز جمال رأسه إيماء بالفهم ثم همس في هدوء:

– لديهم كل الحق، فهي امرأة والنساء قدرتهن على الصبر أحيانا محدودة، وأخوك رجل يزرع الأرض ويرويها ويفلحها، لا يدرك جدوى ما تفعل وأنك تفعل مثله تماما لكن بعقلك لا بسواعدك، هو يزرع الأرض وينتظر المحصول وأنت تزرع الفكرة في عقول

الناس بقلمك ولم يحن حتى الآن وقت الحصاد، فلا تلم أحدهم إذا غضب منك فكلا منكم يزرع في أرض مختلفة، وكما قال رسول الله ﷺ فأحني سامح رأسه إلى الأرض وهمس قائلا:

– صلى الله عليه وسلم

وأعاد جمال القول في هدوء شديد فقال في وداعة:

– ألم يقل النبي ﷺ (أُمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم)

فقال سامح

– نعم، لقد صدقت

وابتسم جمال ثم أمسك بساعد سامح وجذبه رغما عنه قائلا:

– ما دمت أيقظتني فأنت مرغم أن تصنع لي كوبا من الشاي وبنفسك

فقال سامح مبتسما:

– لا عليكن قل فقط أدام الله صداقتنا وأبقاني لك حتى تجد من يصنع لك الشاي

فضحك جمال وقال في مرح وبهذه المناسبة السعيدة سوف نشاهد فيلما للنجم الكبير أحمد زكي، وهنا هتف سامح فجأة:

– لقد تذكرت الآن وفورا سؤالا كان يدور في عقلي، ماذا تعرف من أخبار جديدة عن دكتور أحمد خالد توفيق؟

– يا صديقي، أعرف عنه الكثير مما لا تكفيه مجلدات ومراجع

فقال سامح مبتسما:

– إذن حدثني عنه سريعا، وليكن ما عندك جديد عن هذا الرجل

فقال جمال في نيرات تمتزج بالشغف:

– الحديث عن دكتور أحمد خالد توفيق ومؤلفاته وكتبه وما ترجمه من أعمال سوف يطول وربما يمتد بنا أياما ولا أبالغ إن قلت أسابيع أيضا

فتنهد سامح مبتسما وقال وهو يشير بيده مودعا صديقه:

– إذن اترك لي أنت مهمة البحث عن فكرة رواية استعرض من خلالها ملامح حياة هذا الرجل العظيم

ومضي سامح إلى بيته وظل صامتا طيلة الليل يفكر فيما يجب أن يكون عليه شكل تلك الرواية التي يفكر في كتابتها عن حياة عملاق من عمالقة الأدب في حياتنا حاليا، ورمز من رموز أدب الفانتازيا والخيال العلمي، وأحد أوائل الكتاب البارزين في أدب الرعب في مصر والوطن العربي، ومضت عدة أيام قبل أن يهتدي سامح إلى فكرة رواية أسماها "المُناضل" وتدور أحداث الرواية التي عكف سامح درويش على كتابتها عن حياة شاب من شباب مصر الذين عاشوا في ظروف اجتماعية واقتصادية بالغة القسوة في ريف مصر وأسماه سامح درويش في روايته "يوسف نجيب الفحَّام" وكان يوسف حسب ما ذكره مؤلف الرواية سامح درويش هو الفتى الوحيد لأب فقير كان يعيش في قرية بعيدة في ريف مصر، وكان يمتلك مقهى صغير يدر عائدا محدودا، وكان للفتي يوسف بطل رواية المناضل أخ وحيد لأربعة من الشقيقات قبل أن تشهد حياته واقعة مؤسفة فقد اضطر الأب نجيب الفحام الذي كان والده يتاجر بالفحم ويقوم بتوزيعه على المقاهي ومطاعم الشواء في المدينة، اضطر نجيب بعد وفاة

أبيه إلى بيع ما كان يملك بالقرية ولم يكن سوي دراجة بخارية ورأسين من الماشية وهجر القرية بسبب خلافات عائلية وارتحل مع أسرته إلى مكان آخر، ومرضت زوجته بعد فترة ولذلك تورط الرجل في جريمة تهريب كمية من أجولة الخضروات في سيارة كانت تحوي قطعة أثرية مهربة طمعا في الحصول على مال يعوض به ما تم إنفاقه أثناء مرض الزوجة (والدة يوسف بطل رواية المناضل) ثم تخلي عن نجيب الجميع فزجت به الأقدار إلى غياهب السجون ليقضي الرجل فترة قصيرة في محبسه وتفاجئ أسرته بوفاته في ظروف غامضة داخل السجن، وبرغم كل ذلك كان ولده الوحيد الذي شق طريقه الوعر وسط كل هذه الظلمات، قد أحرز تميزا علميا رغم قسوة الحياة وعمله أثناء دراسته بالأجر اليومي ليوفر نفقاته فكان يتنقل بين المطاعم تارة ومواقع البناء والإنشاءات تارة أخرى، وبعد وفاة أبيه تولى أخواله مساعدة والدته وشقيقاته على مواجهة أعباء الحياة وخاض يوسف حربا لا هوادة فيها في حقل التعليم بعد حصوله على تقدير مرتفع بمرحلة الليسانس، فاتخذ قرارا أن يواصل مسيرته حتى النهاية، وقرر أن يكمل دراسته حتى الحصول على درجة الماجستير في قسم اللغة العربية بكلية الآداب، وكان موضوع رسالته العلمية التي تقدم بها لمجلس الكلية (دكتور أحمد خالد توفيق وريادة أدب الرعب. البناء الأدبي عند طبيب الكلمات) وناقش الباحث يوسف نجيب أعمال العراب وسيرته الذاتية وبعض المحطات الأدبية الهامة في حياته، فكتب الفتي عن

العراب قائلا أنه كاد يتعثر في بداية مشواره الأدبي لولا دعم الدكتور نبيل فاروق الأديب الأشهر في مصر في ذلك الوقت وحتى يومنا هذا، ثم تحدث الفتي عن عمل العراب ببعض الجرائد ومنها جريدة (التحرير) وعن ريادة العراب لأدب الرعب والخيال العلمي وعن كتابته لرواية من ثلاثة أجزاء بعنوان (الآن نفتح الصندوق) وعن ترجمة بعض روايات العراب إلى عدة لغات إلى جانب ترجمته لبعض الأعمال لكبار الكتاب الأمريكيين ومنهم كاتب من أصل أفغاني وهو الكاتب الأمريكي "خالد حسيني" مؤلف رواية (عدَّاء الطائرة الورقية) وكتب يوسف نجيب عن "العراب" أيضا نشره لسلسة رجفة الموت، وهي روايات رعب مترجمة، ولم يكن الرجل ينسي دوره كطبيب حتى وصل دكتور أحمد خالد توفيق إلى عضو هيئة تدريس بكلية الطب جامعة طنطا، واستمر يترجم الأعمال الأدبية حتى ترجم كتاب المقابر للكاتب "نيل جايمان" وقد كتب الباحث يوسف نجيب في تلك الرواية التي نسجها سامح درويش في بعض أوراق الرسالة أن العراب كان يعتبر نفسه شخص ممل ولا يصلح لأن يكون قدوة أو مثالا ربما يحوله القلم إلى أسطورة، وكان سامح قد انغمس في عالم العراب أياما طالت حتى كاد ينسي أن لديه زوجة وأبناء وأسرة وأصدقاء لهم عليه واجبات، كما أن لهم في حياتهم حقوقا حتى فرغ من روايته وجاءت لحظة قرر فيها أن يقوم بزيارة صديقه الذي اعتبره في حياته صاحب فضل كبير، فقابله جمال عبد الرحمن بوجه مبتسم وهو يقول في ثقة:

– أري في عينيك أنك قد أنجزت الكثير من مهمتك
فقال سامح وقد حدقت عيناه طويلا وهو ينظر إلى جمال في ذهول:
– وماذا تتوقع أن أكتب أنا عن رجل مثل هذا، ومهما قلت فلن أوفيه قدره الذي يستحقه
فقال جمال مبتسما:
– أكتب ما تستطيع يا صديقي، المهم أن تكون قد أنجزت عملك في وقت قصير يمنحك فرصة المشاركة، فقد اقترب موعد انتهاء استقبال الأعمال الخاصة بالمسابقة
وقال سامح مبتسما:
– لقد أنجزت روايتي يا صديقي
ثم عرض على جمال ملخص الرواية التي تدور حول شاب عاش في ظروف شديدة القسوة وبالعلم وبالإرادة وصل إلى درجة علمية رفيعة أتاحت له فرصة ذهبية ليعمل مدرسا بإحدى الجامعات العربية خارج مصر بعد حصوله على درجة الماجستير في الأدب والنقد عن رسالة علمية تناولت حياة الأديب والكاتب احمد خالد توفيق، وكانت الرواية تحمل اسم (المناضل) وهي تشير إلى حياة بطل الرواية وما أحاط به من ظروف شاقة
ومضي سامح إلى بيته منشرح الصدر بعد أن عانقه صديقه تهنئة له على إنجاز عمله الشاق، وكان سامح يلوم نفسه عندما سمح لليأس أن يسيطر على قلبه في لحظة قاسية بعد أن كان قد أوشك في تلك اللحظة على أن يقترض من جمال صديقه

مالا فيهبه لأخيه، لكنه شكر لنفسه حسن تصرفه عندما أمسك لسانه عن الخوض في مثل هذا الحديث حتى لا يريق ماء وجهه بين يدي صديقه كما فعل مع شقيقه عادل عندما مرض الفتي محمود قبل إجراء الجراحة له منذ فترة ليست بعيدة، وذهب سامح إلى زوجته فعاتبته بتقصيره لكنه نجح في استرضائها ببعض من الكلمات وعبارات الاعتذار إلى أن انقشعت سحابة الأحزان ليتفرغ سامح من جديد لمراجعة عمله المهم والذي كان قد أوشك على الانتهاء من تجهيزه منذ عدة أيام، ثم مضت أيام قليلة كان سامح خلالها قد اشترك بالمسابقة وأصبح منذ ذلك الوقت متفرغا للعبادة راجيا الله أن يكتب له الفوز، وعاد إلى أبنائه ليساعدهم في استذكار دروسهم ومتابعة تطورات المستوي الدراسي لهم في تلك البيئة الجديدة عندما أقام في قريته مع والدته، وقد ساهم مع أخيه في حل بعض المشكلات التي كانت تنشب بين أخيه وبين جيرانه من الفلاحين عند مواسم العمل والري في الحقول وعند القيام برعاية الأرض وغيرها، فعاد سامح كما كان قبل أن يسافر إلى الجامعة في بداية شبابه، عاد بقلبه النقي وفطرته الطيبة إلى حياته الأولى، ومضت الأيام لتأتي ليلة لا تنسي وتكتمل الفرحة بعد تلك الليلة التي أبلغ فيها جمال صديقه بأنه قد فاز بالمركز الأول والجائزة الأولى في المسابقة وأن النتيجة سوف تعلن صباح غدا في وسائل الإعلام المرئية بعد أن أعلنت أسماء الفائزين على مواقع الإنترنت مساء ذلك اليوم، وأعلنت المؤسسة العربية للثقافة في صباح اليوم التالي

فوز سامح درويش بالجائزة الأولى وقيمتها ١٠٠ ألف دولار عن روايته (المناضل) وغمرت أجواء الفرحة بيوت العائلة كلها فلم تنم عائلة سامح ليلتها ورأت والدته الدنيا بعينه حلوة خضراء ذات رائحة طيبة كأنها قطعة من الجنة، وعندما أشرق الصباح في اليوم التالي، بدأ سامح درويش يتهيأ لما هو قادم، وبعد إعلان نتيجة المسابقة بيومين كاملين فوجئ باتصال هاتفي من مؤسسة الخليج للتنمية الثقافية تدعوه إلى زيارة دولة الإمارات العربية المتحدة في غضون أيام، وكانت تلك الأيام قد مضت كالحلم الجميل بين مصلحة الجوازات المصرية وعدة أماكن أخرى لاستخراج جواز السفر اللازم وتذاكر الطيران، واستمرت جولات سامح بين بيته وبيوت عائلته ومن كان يفد إليه لتهنئته، ولم يشعر سامح بالسعادة الحقيقية وبما هو مقبل عليه من فرحة كبرى إلا عندما وجد نفسه على سلم الطائرة متجها إلى دولة الإمارات العربية المتحدة لاستلام الجائزة الأولى، وقد شاءت الأقدار أن يقام حفل تسليم جوائز المسابقة الدولية للإبداع العربي بالتزامن مع حفل تكريم الرواد في شتي مجالات الأدب العربي التي أقامته إحدى المؤسسات الثقافية بإمارة أبو ظبي بدولة الإمارات العربية المتحدة، وقد أقيم احتفال كبير لتسليم الجوائز للفائزين في مدينتين في وقت واحد ومضت ساعات حتى حانت لحظة لا ينساها سامح، وصعد في مساء يوم محدد قبل سفره من مصر إلى منصة التكريم في حفل أقيم بتلك الأرض التي قضي على أرضها أياما كالحلم الجميل، وكانت

تتراءى لعينيه كأنها أرض الأحلام التي كان يتمني طيلة عمره أن يزورها، وكان صعوده في تلك اللحظة حدثا تاريخيا في حياته فألقي كلمة موجزة قال فيها:

– أيها السادة الكرام عشاق الأدب والثقافة والكلمة الراقية، جئت إلى هنا اليوم لأتقدم باسمي وباسم كل عربي بخالص الشكر والتقدير والعرفان لكل من يساهم في الاحتفاء برجل ساهم في أن يعقد المواطن المصري والعربي صلحا بعد هجر طويل مع الكلمة المكتوبة والسطور التي تنير العقل وبنورها تتوهج في الروح شموع المعرفة فتنير الطريق المظلم أمام كل من يسلك الدروب المظلمة بحثا عن المعرفة لإنقاذ العقل والروح من ظلمات الجهالة ووحشة الاغتراب في دنيا يعادي فيها المرء كل ما يجهله من آفاق ودروب مليئة بالمتعة والتشويق

في كل كتاب يخطه كاتب يحترم الكلمة المكتوبة ويحترم قارئها فيقارب بينه وبين أول وأسمى المعاني الخالدة في تاريخ الإنسانية كلها، إنها القراءة التي تنطوي على معنى العلم والمعرفة فيمثل كل كاتب بقلمه خطوة على الطريق بتحقيق مراد الله من إرسال الرسل والأنبياء عندما يقرا الإنسان، فيعرف ويعرف، فيعمل ويعمل، فيصبح أكثر رقيا وأكثر إنسانية وأحق بالتكريم الذي ميز الله به البشر على سائر مخلوقاته عندما خلق لهم العقول لتعي والأبصار لترى والألسنة لتنطق بالحق، فأصبحت الكلمة المكتوبة أمانة، والقراءة رسالة السماء عندما قاله رب العزة في أول كلمات الوحي، بسم الله الرحمن الرحيم، (اقرأ

باسم ربك الذي خلق)
ثم تنهد سامح بعمق قائلا:
– صدق الله العظيم
وأنهى سامح حديثه في عُجالة وقد اغرورقت عيناه بالدموع حين طلب من الحاضرين الترحم على روح العراب، الدكتور احمد خالد توفيق، الذي كتب له محبوه وقرائه كل ما حفظوه عنه من كلمات، وجعلوها ملصقات ثابتة عند قبره لكنها ستبقي أكثر خلودا في قلوبهم ما دامت كتابات الرجل باقية، ومادام للكلمة احترامها، وللفكر أثره الطيب في حياة الشعوب، وفي تلك اللحظة ضجت القاعة بالتصفيق الحاد، وعلت صيحات الإعجاب من الحاضرين، فابتسم سامح وتوردت وجنتاه بسعادة غامرة نابعة من قلبه بعد أن صحبت إشارته بيده إلى صورة العراب تصفيق الحاضرين من شباب الدول العربية والجالية المصرية والآلاف من عشاق العراب والذين اكتظت بهم القاعة حتى لم يبق فيها موضع لقدم، فقال سامح مبتسما وقد أشرق وجهه بالنور والسعادة:
– أردت عندما اخترت شخصية مؤثرة في مصر العالم العربي، وربما في حاضر الإنسانية جمعاء، أن أكتب عن دكتور أحمد خالد توفيق ليتاح لي أن أقدم للشباب في مصر والبلاد العربية نموذجا حقيقيا لبطل ليس من صنع الخيال، لكنه بطلا كان يعيش بينهم في بقعة من بقاع الأرض وفي زمانهم، فأثر فيهم كما تأثر بهم، وأشرقت الابتسامة في وجه سامح درويش لتنسيه

مرارة الأيام حين صعد رئيس المؤسسة ليسلمه الجائزة متمنيا له التوفيق فيما هو قادم من أعمال، وعاد سامح بعد رحلة كانت كالحلم الجميل وهو لا ينسي عاصفة التصفيق التي كانت في ختام كلمته، ولا تلك العاصفة من الحب التي ودعه بها الشباب العربي حتى صعد الطائرة التي تقله إلى مصر سابحة في الفضاء ليعود إلى حياة جديدة وبداية جديدة، بعد أن تغيرت حياته بفضل رجل ترك عميق الأثر في حياة الآلاف دون أن يراه كثير منهم فقط لأنه أحب فعل الخير وتقديم ما يسعد الناس جميعا.

• • •

تم بحمد الله

فهرس

الفصل الأول ٣
الفصل الثاني ١٧
الفصل الثالث ٣٩
الفصل الرابع ٥٠
الفصل الخامس..... ٦٩
الفصل السادس..... ٨٨
الفصل السابع..... ١٠٥
الفصل الثامن..... ١١٩
الفصل التاسع..... ١٣٨
الفصل العاشر ١٥١

عن الدار ومشروع النشر الحر

دار لوتس للنشر الحر هي أول دار نشر حرة يملكها كل كاتب، تعتمد مبدأ النشر الحر من خلال مشروع طموح يهدف إلى تخطي عقبات النشر ومساعدة الكاتب للنشر بطريقة تمنحه الحرية الكاملة وكل الحقوق والصلاحيات للتعامل مع كتابه دون استغلاله مادياً أو معنوياً، ودون احتكار لمجهوده الفكري في عملية تجارية، وبدون تكلفة مالية.

هي مشروع خدمي وليس تجاري، تدعم الكاتب الموهوب وتسانده، تحاول الارتقاء بمستوى الأدب وتهدف إلى احترام الكاتب والقارئ من خلال نشر كل ما هو جيد دون الإساءة لشخص، أو أشخاص، أو مؤسسات، أو أفكار، أو عقائد، أو ديانات، أو أنظمة سياسية.

إصدارات الدار

٠٠١ قلم عطر
٠٠٢ وعادت ريما
٠٠٣ مثل ليلة حب
٠٠٤ وكأني أحبك
٠٠٥ عالم قراطيس قراطيس
٠٠٦ أوتار
٠٠٧ دماء على ثوب أبيض
٠٠٨ أموات فوق الأرض
٠٠٩ بقلم رصاص
٠١٠ حريق على الجسر
٠١١ القدرات السحرية
٠١٢ العالم لن ينتظرك
٠١٣ عندما ينتحب الياسمين
٠١٤ مرايا
٠١٥ البوهيمي
٠١٦ أيها الشباب لا تفقدوا الأمل
٠١٧ خريف مريم
٠١٨ حلم صريع
٠١٩ مُتيم
٠٢٠ يوميات رجل محسود
٠٢١ هدوء ما قبل الانفجار
٠٢٢ الموؤودة
٠٢٣ أنين المساجد
٠٢٤ صوت السماء
٠٢٥ طبق كشري
٠٢٦ وأحببتك بعين قلبي
٠٢٧ ما لا تعرفه عن الهجرة
٠٢٨ الأيام الأخيرة
٠٢٩ موانئ الرغبة
٠٣٠ ١٠٣
٠٣١ زمن الحنين
٠٣٢ أوراق على دفتر الحنين
٠٣٣ أحببتُ شبحاً
٠٣٤ حكايات من التاريخ
٠٣٥ كلمات ربي (ج١)
٠٣٦ وشم على كتف الحياة
٠٣٧ كيتو ياكيفو
٠٣٨ يتيمة بأبوين
٠٣٩ مائة عام على كوكب الأرض
٠٤٠ نبوءة عاشق
٠٤١ رصيف نمرة ٢
٠٤٢ قمر الدم
٠٤٣ حنين الحنين
٠٤٤ نساء وقيود
٠٤٥ الآهات المكبوتة
٠٤٦ عن الذي استدان ليشتري الشقاء
٠٤٧ كتبتُ أحبك
٠٤٨ فلاكا
٠٤٩ الآدم وهي
٠٥٠ أحلام فجر
٠٥١ مفاهيم إدارية لثالث ألفية
٠٥٢ عاشق الضي

٠٥٣ أنامل قصصية
٠٥٤ مملكة روح
٠٥٥ ماهر وسماهر وبئر النسيان
٠٥٦ الضال
٠٥٧ خليج بلا وافدين
٠٥٨ في ليلة شتا
٠٥٩ الشيطانة وعصا الجحيم
٠٦٠ أنين وردة
٠٦١ لا تتعجلي الرحيل
٠٦٢ بدون
٠٦٣ من الأكاديمية إلى الفيلا
٠٦٤ بردية رع (ذهاب وعودة)
٠٦٥ كاتب ونساء وعبث
٠٦٦ جيهينا
٠٦٧ مذكرات خادمة من مونار
٠٦٨ بعيداً عن العالم
٠٦٩ قمر الدم (العودة)
٠٧٠ سئمت الغربة
٠٧١ هكذا ضعنا
٠٧٢ حلم
٠٧٣ شيء من قلبي
٠٧٤ قطوف وحروف
٠٧٥ عائدة من الموت
٠٧٦ شياطين السموم
٠٧٧ حوار في الأفكار
٠٧٨ وأد الزهور
٠٧٩ أغاني البادية
٠٨٠ الفراشة البيضاء
٠٨١ مدينة حرف
٠٨٢ عذرية ما قبل الواحدة
٠٨٣ حواديت مدينة الرحاب
٠٨٤ الضحية
٠٨٥ غيمات حبر وحب
٠٨٦ كهف الجحيم
٠٨٧ الحبيب المستحيل
٠٨٨ تنمية الفكر الابتكاري للطفل
٠٨٩ المنهج الإصلاحي
٠٩٠ نفيش
٠٩١ ورد وشظايا
٠٩٢ ولوج
٠٩٣ الفن مين يعرفه
٠٩٤ أسطورة كريتوس
٠٩٥ عهد
٠٩٦ نبض حرف لا يخون
٠٩٧ عبد اللاه
٠٩٨ ساكني الكهوف
٠٩٩ أخبرت البحر عنك
١٠٠ أحرفي تتراقص
١٠١ لا تحزني
١٠٢ حلم عاشق
١٠٣ إحساس درويش
١٠٤ أقلام حائرة
١٠٥ خشوع بمحراب الحب
١٠٦ قمر الدم (رحيل الآلهة)
١٠٧ أرض الفيروز
١٠٨ عبرات ضاحكة

١٠٩ أنا يحيى
١١٠ نظم المعلومات المحاسبية
١١١ حكاياتي المحروسة
١١٢ حروف من قلبي
١١٣ على الأعراف
١١٤ زواج افتراضي
١١٥ رجماً بالغيب
١١٦ ألمانتا
١١٧ خواطر مع الريح
١١٨ شمعة وقلم أحمر
١١٩ أسلوب العدول في القرآن الكريم
١٢٠ الفستان الأزرق
١٢١ سيجار ولص ومأذنة
١٢٢ الحب المفقود
١٢٣ القيامة الوردية
١٢٤ كلمات متقاطعة بالشمع الأحمر
١٢٥ لماذا رحلت
١٢٦ جدال
١٢٧ التقارير المالية
١٢٨ موسم التوت
١٢٩ عبث
١٣٠ سلسلة المحاسب المتميز
١٣١ هل ستغفر لي
١٣٢ سفاح المدينة
١٣٣ ناروبري
١٣٤ حبيبة أمها
١٣٥ التيسير في علم التأسيس
١٣٦ همسات ونسمات
١٣٧ الملاك الأسود
١٣٨ ملكوت السلطانة
١٣٩ أنات عاشق
١٤٠ ساعة من الزمن
١٤١ زمان غادرنا
١٤٢ رقة النسائم
١٤٣ سبعة أحلام
١٤٤ في انتظار المد
١٤٥ نداء القلوب
١٤٦ درب الحكايات
١٤٧ ضجيج البحر
١٤٨ من تربة الورد خلقت
١٤٩ شهوات العقل
١٥٠ قطرات منثورة
١٥١ أكروفوبيا
١٥٢ خِدر مسلوب
١٥٣ دروب ملتوية
١٥٤ سوط الذكريات
١٥٥ الأخيذة (قضية رأي عام)
١٥٦ المأدبة
١٥٧ سيناء أرض العبور
١٥٨ الذكاءات المتعددة في تدريس الرياضيات
١٥٩ دكتاتورية الحب
١٦٠ الفراشات لا تسكن القبور
١٦١ تذكرة سفر
١٦٢ وخشعت قلوبهم
١٦٧ وطن الجومانجي
١٦٤ نموذج بايبي البنائي

جميع الحقوق محفوظة

رقم الإيداع
2018MO5371

الترقيم الدولي ISBN
978-9920-790-12-3

رزاياتي
Rwaiaty.com

شمعة وقلم أحمر

علي عيسى

داهمه بوحيين، ربما كان عليم أصغر كبار الشعراء في بلادنا أن يظفر بغصة من الجحيم ليعبر الى الضوء بقرحة النبيذ بعد أن صارت أعباء الحياة التي هي تلك الدماء التي يحتبس فيها الموت يوميه حتى لو منعهم وقت الموت من إرث أحلامهم ومآسيهم وبشاشتهم.